

الإنسان والكون

النَّسِيَّانُ وَالْكَوْنُ

في الإسلام

٥٩

١٩٤٥

دار الثقافة للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى

تلميذاتي من شباب الجامعات

فهرس

الصفحة

١	دعوة البحث
١٣	مقدمة
١٩	السلام والعلم
٢٣	نهج البحث الكونى
٢٣	صورة الكون
٥٥	علاقة الانسان بالكر
٣	اداب الانسان فى علاقته بالكون
٩	خاتمة باهم المراجع

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

مقدمة

يشكو كثير من الناس من أن القيم السائدة في مجتمعاتنا المعاصرة أخذت تهتز بشدة ، وهذا راجع في الحقيقة إلى طبيعة العصر ، فإنه يتميز بأنه عصر صراع فكري وعقائدي حاد ، خصوصا حول قضايا المجتمع الاقتصادية والسياسية والثقافية .

وفي مثل هذا الجو من الصراع الفكري يشعر المواطن في العالم الغربي والإسلامي بحاجة ملحة إلى فهم ثقافات عصره على اختلافها ، والملازمة بينها وبين تراثه الديني والحضاري الذي نشأ في جوه حتى لا يفقد ذاتيته ، خصوصا وأنه يحس من أعماق نفسه أنه ينتمي إلى تراث حضاري أصيل كان له أكبر الأثر في تقدم البشرية ، وأنه إذا كان قد تخلف عن الركب بعض الوقت ، فإنه قادر على المضي قدما إلى الأمام فيلحق بمن سبقوه على الطريق ..

على أنه في هذا اللحاق لا يريد أن يقلد تقليدا أعمى ، وإنما يريد أن يحافظ على استقلاليتة الفكرية ، ولا مانع لديه من أن يفتح على كل الآراء والمذاهب المعاصرة ، ولكن مع ضرورة التمييز بين النافع منها والضار ، ومع تنمية قدرته دائما على الابتكار ، فليس كل ما تنتجه المجتمعات في الشرق أو الغرب من أفكار سالجا بالضرورة لمجتمعه ، ومليها احتياجا إلى الفكرية والروحية ، ومحققا تقدمه الحقيقي لا الزهوى .

وقد أدت سهولة الاتصال بين شعوب العالم في عصرنا إلى غزو
فكرى مجتمعاتنا ، فوفدت إليها فلسفات شتى ، منها ما يؤمن بالتفسير
المادى للوجود ، فليس ثمة إلا المادة وقوانين تطورها ، وما العقل
الإنسانى لا أسى نتاج للمادة ، والعالم لم يوجد إلا اتفاقا أو مصادفة ،
فلا خلق ولا خالق . ومنها ما يبدأ سيره من إيمان لا حد له بمنهج العلم
التجريبي بحيث يجعل معيار الحقيقة التجربة الحسية وحدها ، ومن ثم
لا مجال للفلسف الذى يحاول تجاوز عالم الحس إلى ما وراءه ، فقضايا
الفلسفة التى تتحدث عنها وراء الطبيعة لا معنى لها ، إذ لا يمكن التحقق
من صدقها أو كذبها . وأصحاب هذه الفلسفة يعتون عادةً بالتحليل المنطقى
للمعبارات والألفاظ على أساس أن كل لفظ ليس له ما يشير إليه في عالم
الحس زائف ، وبالتالي فإن القضية التى يستخدم فيها مثل هذا اللفظ
فارقة للمعنى . ولو امتد منهج هذه الفلسفة إلى نطاق الدين لأصبحت
بعض قضايا الدين التى تتحدث عن غيبيات لا معنى لها ، ومن هنا تعتبر
هذه الفلسفة منتهية بطبيعة منهجها إلى تقويض أركان العقيدة الدينية ،
حتى وإن لم يعن أصحابها بتحديد موقفهم من الأديان . وثمة فلسفات أخرى
من فلسفات العصر تنطلق من القول بأن حياة الإنسان لا معنى لها ولا هدف
منها إلى الألحاد . ويرى بعض أصحابها وجود الإنسان مجرد مأساة ،
وأمر غير مفهوم أو لامعقول . ويرى بعضهم الآخر حرية الإنسان بإطلاق
فى تحقيق ماهيته ، إذ لا إله يخلق وفق ماهية سابقة ، ولذلك يكون الوجود
سابقا على الماهية ، ومآل الإنسان إلى العدم ، فلا بعث ولا ثواب ولا
عقاب . منهم أيضا من يؤكد على عدم الإيمان بأى قيمة أخلاقية أو حقيقة
مؤكددة ، ويتجهزون بعنف إلى الهدم ، فتوصف فلسفاتهم بوصف العدمية .
وجميع هذه الفلسفات الأخيرة فى رأينا عبثية ، من حيث أنها ترى الوجود
الإنسانى مجرد عبث ، وتشاؤمية الطابع . ومن أسف أنها شاعت شيوعا
غير عادى عن طريق الكتابات الأدبية والمسرحية المعاصرة فى أوروبا ،
وهي كهيئة بالقضاء على أعظم ما أنتجته البشرية من حضارة ، لأنها تقتل
فى الإنسان طموحه ، ولا تجعل له هدفا يسعى إليه .

والناس فى مجتمعاتنا بازاء هذا الغزو الفكرى ينقسمون إلى ثلاثة
أنسام ، فمنهم من يركن إلى الاتباع والتقليد لكل ما هو وافد جديد دون

وعى أو تفكير حر ، ومنهم من لا يهتم بالموازنة بين ما يفد اليه وما نشأ عليه ، ويقولون : لا وقت لدينا للعناية بمثل هذه الامور ، ويمضون في سبيلهم غير مكترئين ، ومنهم من يحيون مشكلة الغزو الفكرى ويمانونها معاناة حقيقية ، ويريدون ايجاد حل لها ، يكفل عدم ذوبانهم في فكر الغير ، وضياع شخصيتهم المتميزة .

وفي تصورنا ان الاحتكاك المستمر بين الاسلام وفلسفات العصر كالتطورية والماركسية والوضعية والوجودية وغيرها ، سيعمل مع الوقت على ابراز فلسفة للاسلام جديدة ، تفتح على كل الآراء ، ولكنها لا تنقد اصلاتها وارتباطها بتراث اصحابها العميق الجذور في الماضي . ونتيجة للتقدم العلمى المستمر سيصبح من وظائف هذه الفلسفة الملامعة بين العلم والايمان على اساس ان العلم لا يتعارض مع الايمان ، والاسلام نفسه يعين على هذه الملامعة لانه دين العقل ، ولانه يدعو الى البحث الكونى ، وتسخير خيرات هذا الكون للانسان ، وان العلم الذى يقودنا الى معرفة الكون يقودنا في نفس الوقت الى العلم بالله ، ولا تعارض بين العلمين .

وهذا البحث الذى نقدمه للقارىء يسير في ذلك الاتجاه الذى يجمع بين العلم والايمان ، وقد سبق نشره في مجلة «عالم الفكر» الكويتية «المجلد الاول - العدد الثالث - اكتوبر - ديسمبر ١٩٧٠ م» . وقد راينا ان نقدمه للقارىء مرة اخرى في هذه الطبعة ، ونرجو ان يجد فيه ما يشبع حاجته العقلية والروحية .

والله ولى التوفيق .

اول مارس ١٩٧٥ م .

ابو الوفا الفينى التفتازانى

تمت

الإنسان بطبيعته كائن مفكر ، منذ وجد على الأرض وهو دائم التفكير فيما حوله ، ونسيظل كذلك طالما هو موجود عليها ، فالفكر الانساني لم يتوقف - ولن يتوقف أبدا - في كل المجالات التي يمكن أن يتناولها بالبحث والدراسة ، وليس من المتصور مستقبلا ، مهما تقدم العلم ، أن يزعم الانسان أنه أحاط بكل شيء علما ، لان الكون اوسع من أن يحيط به عقله ، وهذه الحقيقة نفسها هي وراء تقدم العلم ، فلو كانت الحقائق العلمية ثابتة ومناهية لوقف التقدم العلمي عند عصر معين او نظريات معينة .

ونحن لا نقول مع سارتر : «أن الانسان محكوم عليه بأن يكون حرا» (١) ، وانما نقول ان ما هو أكثر حقيقة «أن الانسان محكوم عليه بأن يكون مفكرا» ، وما دام الانسان قد حكم عليه بأن يكون مفكرا ، فنسيظل يتساءل بين الحين والحين عن علاقته بهذا الكون ومصيره .

والإنسان هو هو لم يتغير ، كل ما في الامر أنه كان قديما ينزع الى التفسيرات الميتولوجية للظواهر الكونية عن طريق الربط بين هذه الظواهر وبين علل خفية لا انوار خيرة او تفسيرية ، يتخيلها دون أن يكون لوجودها حقيقة ، وهو الآن يستعين بنظريات العلم في تفسير هذه الظواهر نفسها تفسيراً واقعياً ، ولكنه يحس من غاوية أخرى أن العلم لا يفسر له كل شيء ، وأن ما يعرفه عن الكون لا يزال أدنى بكثير مما لم يعرف ، فانسبان العصر في الحقيقة ليس أقل من الانسان القديم اطلاقا لعنان خياله ، ولكن خياله

(1) Sartre (J.-P.) : L'être et le néant, P. 638.

فى هذه المرة — اذا صح التعبير — خيال علمى ينطلق من حقائق العلم الى آفاق المجهول الواسعة .

وهنا قد يتساءل البعض : هل تستطيع النظرة الفلسفية الكلية الشاملة للوجود ان تصمد فى هذا العصر امام الزحف العلمى بعد ان وطأ الانسان بقديه سطح القمر ؟

واجابتنا على ذلك هى اننا نتوقع ان تقوى هذه النظرة الفلسفية عما كانت عليه من قبل . ذلك ان البشرية قد دخلت عصرا جديدا ابرز ما يميزه ايمان لا حد له بالعلم والتكنولوجيا ، وازدياد فى ثقة الإنسان بنفسه فى مواجهة الطبيعة ، واعتماد بعلمية التفكير فى شتى نواحي الحياة الانسانية ، ومن هذا المنطلق ستنشأ فلسفات جديدة ، ولكنها ستحتاج الى مجهودات غير عادية تبذل لتنوع العلوم وازدياد الوقائع العلمية بشكل يفوق تصور العقل ، فهذه الوقائع تتضاعف يوما بعد يوم بحيث يصعب على اى مفكر ان يلاحقها ، واى فلسفة نظرية مستقبلية لا تستند الى وقائع العلم منظورا اليها نظرة كلية شاملة لن تجد قبولا .

ومن المتوقع ان يتناول المفكرون مستقبلا قضايا لم يكن يهتم الناس بها كثيرا من قبل ، فبعد ان كان الناس فى القرن الماضى واوائل هذا القرن يوجهون اهتمامهم الاساسى الى الواقع المادى المشاهد ، وتطور الكائنات الحية على هذه الارض ، خصوصا بعد اعلان دارون نظريته فى التطور ، فان الجيل المعاصر والاجيال التى ستليه ستوجه اهتمامها الى الكون الخارجى ، وستسائل عن حدوده وابعاده ، وامكان وجود كائنات اخرى فيه ، وما هو نوع حياتها ، وهل الفضاء الخارجى يتناهى او لا يتناهى ، وهل هناك امكانية لحياة البشر على سطح بعض الكواكب الاخرى ، وهل لا يوجد فى هذا الكون الا الانسان فقط ؟ كل هذه تساؤلات اصبحت تلج على الانسان المعاصر بعد ان نجح فى الوصول الى القمر .

وصحيح ان مثل هذه التساؤلات لن يجيب عليها بشكل محدد الا العلم ولكن الانسان لن ينتظر حتى يجيب العلم عن كل تساؤلاته ، وعتنئذ سيلجأ ابا الى الاستدلال العقلى ، فيضع امامه نتائج العلم ليستنبط منها بنظرة.

كلية شاملة اجابات على تساؤلاته تلك قد تصبح بعد حين بمثابة فروض
جديدة يبدأ العلم منها سيره التي اكتشاف آفاق اخرى مجهولة ، او سيلجأ
إلى الخيال لفترة طويلة مقبلة ، وسنجد كتابا وفكرين يطلقون العنان
لخيالهم في شأن الكون ، بل أن بعض العلماء سيكثرون من القروض العلمية
ولكن آراء أولئك وهؤلاء ستكون أدخل في بابي الفن والادب منها
فإن بآث العلم .

مهما يكن من شيء ، فإن الفلسفة بنظرتها الكلية الشاملة ، والادب
والفن بما يوجيان به من المعاني والافكار ، لن تفقد جميعا أهميتها في عصر
العلم ، بل قد تعين العلم ذاته على مواصلة السير في طريق التقدم .

ولعل من الملاحظ أنه مع تقدم سير العلوم الكونية نحو اكتشاف آفاق
جديدة مجهولة ينشط دعاة المادية مؤكدين للناس وجوب النظرة الى كل
تراث ديني على أنه لا مكان له في هذا العصر . وقد أدى ذلك في مجتمعاتنا
العربية والاسلامية الى نوع من الصراع — الذي لا مبرر له — بين قيم
تراثنا الديني والحضاري والقيم الجديدة الوافدة التي يؤكد عليها أولئك
الدعاة . ومثل هذا الصراع ينشأ في رأينا من عدم التعمق في فهم طبيعة
الاسلام ، والانسحاق بدون وعي وراء فلسفات العصر المادية ، وليس من
شروط التقدم العلمي أن يقتصر بالاحاد ، كما ان الاحاد في ذاته ليس دليلا
على علمية النظرة .

ولعل من أبرز الاسئلة التي يثيرها عقل الانسان الآن في مجتمعاتنا %
حين يحاول التوفيق بين الاسلام وروح العصر الذي يعيش فيه ، هذه
الاسئلة الثلاثة :

(أ) العلم كما نرى الآن يكشف من أسرار الكون ما لم يكن يخطر على
بال أحد من السابقين ، والفضل في ذلك يرجع الى منهجه الذي التزم به %
فهل الاسلام متفق مع العلم روحا ومنهجيا ، وما هي مظاهر هذا الاتفاق؟

(ب) اذا كان العلم الحديث قد ساعد ، بما وصل اليه من نتائج في
مجالات شتى ، على تكوين صورة معينة عن هذا الكون ، كما اثبت قدرة

الإنسان على تسخير ما فيه من قوى طبيعية وخيرات مادية لمنفعته
الخاصة ، فالى اى جيد تتوافق هذه الصورة مع تلك التى يمكن ان
تستخلصها من المصدر الاول للاسلام ، وهو القرآن الكريم ، من الكون
والإنسان ؟

(ج) اذا كان العلم يصاحبه الآن كما نرى ايمان شديد بالمادة وغرور
بإمكانيات الإنسان ، فما هى قيم الاسلام الروحية التى تحذّر من
الخطر ذلك ؟

لقد أردنا لبحثنا هذا ان يكون محاولة للإجابة عن هذه الاسئلة ■
وعبما يلى بيان ذلك ■

الإسلام والعلم

لو أنك نظرت الى العلم نظرة فاحصة لوجدت انه فى اساسه خلق ،
فالعالم يكتسب معلوماته وفق آداب معينة ، وهى ما يعرف بقواعد المنهج
العلمى ، فالعلم ليس معلومات بقدر ما هو طريقة أو منهج لتحصيل هذه
المعلومات ، وهو بهذا الاعتبار «قيمة» من القيم ، اذا آمن بها المجتمع
كأسلوب فى الحياة ، فان هذا المجتمع يحقق تقدمه الحضارى النشود ،
واذا لم يؤمن بها أصبح افراده فريسة للاوهام والخرافات ، ولم يحققوا
لجتمعتهم أى تقدم مادي أو روحى .

وقيمة العلم بهذا المعنى قيمة أساسية فى الاسلام ، فهو يجعل
التفاضل بين الناس فى المجتمع على أساس منه ، لانه أساس كل عمل
فاجح أو سلوك فاضل . والتقوى - التى هى أيضا من أسس التفاضل بين
الناس فى المجتمع - هى نفسها مردودة الى العلم بأحكام الدين ، فرجع
التفاضل بين الناس مطلقا الى العلم .

يقول تعالى : «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون»
(سورة الزمر آية ٩) . ويقول تعالى : «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين
أوتوا العلم درجات» (سورة المجادلة آية ١١) .

وقد نبه الاسلام الناس الى أن العلم لا يقف عند حد معين ، وقد كان
الناس قديما يعتقدون أن حقائق العلم ثابتة حتى اثبت علماء مناهج البحث
فى العصور الحديثة أن نتائج العلوم احتمالية ، أى أن الصدق فيها احتمالى
قابل للتغيير ، وهذا يفسر لنا التقييم العلمى المستمر ، وهذه المعانى كلها
متضمنة فى قوله تعالى : «وقل رب زدنى علما» (سورة طه آية ١١٤) ،
ومن ثم أصبح واجبا على المسلم أن يستزيد من العلم يوما بعد يوم ،
فمفسرة العلم لا تتوقف أبدا .

ومما له دلالة عميقة على أن العلم في الإسلام على درجة قصوى من

الأهمية أن أول ما نزل من القرآن على الرسول (ص) هو قول الله تعالى :
«اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم .
الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم» . (سورة العلق ، آية ١ - ٥) .
ولهذا نجد الرسول (ص) يجعل قداء من يقرأون ويكتبون من أسرى بدر أن
يعلم كل واحد منهم عشرة من أبناء المسلمين في المدينة القراءة والكتابة .

وشرط العلم في الإسلام أن يكون نافعا ، فقد كان الرسول (ص) -
يستعيز من شر ما لا ينفع من العلم ، كما يستفاد ذلك من دعاء ماثور عنه
يقول فيه : «اللهم انى أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع ،
ومن نفس لا تشيع ، ومن علم لا ينفع» .

والمقصود بكون العلم نافعا في الإسلام أن ينتفع به الفرد والمجتمع ،
وقد روى عن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنه كتب الى أبى بكر بن حزم
يقول : «انظر ما كان من حديث رسول الله (ص) لما كتبت فأتى خفت دروس
العلم (أى ذهاب أثره) وذهاب العلماء ، وليفتشوا (أى العلماء) العلم ،
وليجلسوا له حتى يعلم من لا يعلم ، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا (١)» .

من هذا كله تبين لك مكانة العلم في الإسلام ، فهو قيمة أساسية من
قيمه ، من شمسيتها كشمس مجهول أو استكناه معقول من أجل خير الفرد
والمجتمع ، وإذا كان الأمر كذلك ، فالإتفاق بين العلم والإسلام ظاهرا ،
ولا مجال للقول بالتعارض بينهما .

(١) الحسينانى : تفسير الوصول ، القاهرة ١٣٤٦ هـ ، ج ٣ ، ص ١٧٨ .

منهج البحث الكوني

ونحن لو نظرنا إلى القرآن الكريم نظرة فاجصة متأنية لوجدنا أنه يوجه العقل البشري إلى استخدام منهج متكامل في البحث في الكون (٢) .

(٢) لعله من المفيد في بداية بحثنا أن نحدد مصدر اصطلاح «الكون» من القرآن الكريم ومعانيه عند مفكرى الإسلام :

وأول ما نلاحظه أن القرآن الكريم يشير إلى أن التكوين — وهو اخراج المعلوم من العدم إلى الوجود — صفة الله تعالى ، وهو تكوينه للعالم ، ولكل جزء من أجزائه لوقت وجوده على حسب علمه وإرادته (التهافتى : كشف اصطلاحات الفنون ، مادة : «التكوين») . والتكوين مشار إليه في قول الله تعالى : «إذا قضى أمرا فأنما يقول له كن فيكون» (سورة مريم ، آية ٣٥) . ومعنى ذلك أن الله يحكم يكون هذا الأمر فيكونه (ابن حزم ، الفصل ، بهامش الملل والنحل للشهرستاني ، القاهرة ، ج ٣ ، ص ٥٢) . ويرى المتكلمون أن الكون مرادف للوجود (التهافتى : كشف اصطلاحات الفنون ، مادة : «الكون») ، وقد يستخدم اصطلاح «العالم» أيضا ويشير به إلى مجموع أجزاء الكون ، أي إلى مجموع المخلوقات ويرى أهل التحقيق ، كما يقول الجرجاني — ولعله يقصد بهم الصوفية من أصحاب وحدة الوجود — أن الكون عبارة عن وجود العالم كله من حيث هو عالم لا من حيث أنه حق . أما أهل النظر في الفلسفة فيرادف الكون عندهم الوجود المطلق العام ، وهو بمعنى الكون عندهم . (التعريفات مادة : «الكون») فالكون بالمعنى الذى يمكن أن يستخلص من التعريفات السابقة هو مجموع ما تكون بالإرادة الإلهية في الزمان والمكان من الموجودات على اختلافها بعد أن لم تكن موجودة . ولهذا المعنى ما يماثله في التراث الفلسفى الأوروبى ، فان لفظ «كون» «Universum» يشير إلى مجموع الأشياء (Summa rerum) ، أو مجموع ما يوجد في الزمان والمكان . وعند الفيلسوف لينتز أيضا هو جملة الأشياء الموجودة ، وإذا كان ثمة عوالم يمكن أن توجد في أزمنة مختلفة وامكنة مختلفة ، فانه يمكن اعتبارها جميعا عالما واحدا ، أو أن نشئت كونا (Theodicée, 1.8) وقد يطلق الكون مجازا على العوالم المرئية (Le monde visible) (أو عالم الشهادة كما يطلق عليه الأسلاميون) . وقد يعتبر الكون (Univers) مطلقا على حين يعتبر العالم Mondo نسبيا :

Comte (A) : polit. positive. 1,348

أما بالنسبة لنظرية النسبية عند أينشتاين فإن الكون هو مجموع الأحداث المتميزة بارتباطها الزمكاني (نسبة إلى زمان — مكان) ، أنظر في هذه المعاني وغيرها :

Lalande ; Vocabulaire technique et Critique de la Philosophie.

Art ; - Univers -

ولهذا المنهج خطوتان : أحدهما يطرح فيها الإنسان جانباً آراءه السابقة عن الكون ، أو أن شئت قلت : يطرح فيها التقليد ليتحرر فكره من قيوده ، ويكون أكثر استعداداً للبحث الموضوعي ، والثانية يكون بها صورة عن الكون ، وعن علاقته به ودوره فيه .

فلنشرع في بيان الخطوة الأولى :
يدعو القرآن الكريم الإنسان بادیء ذي بدء إلى طرح التقليد ، وتحريز الفكر من الآراء والمذاهب السابقة الموروثة ، وفي ذلك يقول تعالى :
«وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون» (سورة البقرة آية ١٧٠) .

وينمى القرآن على أولئك الذين الفوا أشخاصهم وعقولهم فعبدوا الأحرار والرهبان بمثل قوله تعالى : «اتخذوا أحيارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله» (سورة التوبة — آية ٣١) .

ويعير القرآن أولئك الذين عطلوا خواسمهم وعقولهم وركنوا إلى التقليد الأعمى باتهم كالانعام ، بل هم أضل سبيلاً ، فيقول تعالى : «لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون» (سورة الاعراف — آية ١٧٩)

ويقول تعالى : «ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون» (سورة الانفال آية ٢٢) .

وجعل القرآن العلم وحده — لا التقليد — السبيل الموصل إلى ما يعتقد الإنسان ويسلك وفقه ، كما يشير إليه قوله تعالى : «ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا» (سورة الاسراء آية ٣٦) .

وكثيراً ما تحدى أولئك المقلدين للعقائد الباطلة الموروثة بمثل قوله تعالى : «قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين» (سورة البقرة آية ١١١) .
وقوله تعالى : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تنبعون الا الظن وان اتمم الا غرضون » (سورة الانعام آية ١٤٨) .

وكان من بين التصورات الكونية والمعتقدات المنحرفة عند العرب في الجاهلية ثالثة الكواكب ، وعبادة الاصنام ، وتعدد الآلهة ، والايمان بالدهر ، وانكار الروح والبعث ، وما الى ذلك . فقد كان العرب — خصوصا في جوف الجزيرة العربية — يعبدون الاصنام ويقدمون لها القرابين ، وهذا هو ما يعرف بالوثنية . وكانت في الكعبة اصنام لجميع القبائل ، وكبير الاصنام فيها الصنم المعروف بـ «هبل» . وكان من اصنام العرب ايضا اللات والعزى ومناة . ومن العرب كذلك من كان يعبد الكواكب ويؤمن بالتنجيم ، فكانت حمير تعبد الشمس ، وكنانة القمر ، وهناك قبائل اخرى كان يتوجه بعضها بالعبادة الى المشتري ، او الى الشعرى ، او الى عطارد (٤)

ولعل اولئك العرب لم يكونوا يتصورون الاصنام خالقة لهذا الكون ، وانما كانوا يؤمنون بآله خلقه ، والى هذا يشير صاعد الاندلسي بقوله : «وجميع عبدة الاوثان من العرب موحدة لله تعالى ، وانما كانت عبادتهم لها ضربا من التقدير الصائبة في تعظيم الكواكب والاصنام الممثلة بها في الهياكل لا على ما يعتقد الجاهل بديانات الامم وآراء الفرق من ان عبدة الاوثان ترى ان الاوثان هي الخالقة للعالم ، ولم يعتقد قط هذا الرأي صاحب فكرة ، ولا دان به صاحب عقل ، دليل ذلك قول الله تبارك وتعالى «ما نعبدكم ولا ليقربونا الى الله زلنى» سورة الزمر آية ٣» (٥)

على انه يجب التنبيه الى انه ليس من الصواب ان يصف صاعد اولئك العرب بانهم موحدة لله ، لان التوحيد الحقيقي لله ينتفى معه اتخاذ الوسطاء والشركاء . واذا كان العرب قد عظموا اوثانهم وعبدوها لتقربهم الى الله زلفى ، فان هذا من قبيل الوثنية المشركة التي حاربها الاسلام حربا لا هوادة

(٤) انظر في تفصيل هذا : صاعد الاندلسي : طبقات الامم ، المكتبة الجيدرية بالنجف ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م ، ص ٥٦ — ٥٧ .

(٥) طبقات الامم ، ص ٥٧ .

فيها ، فالتوحيد الحقيقي هو الذي أشار إليه القرآن على لسان أنبيائه في
مثل قوله تعالى : « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » [سورة الاعراف
— آية ٥٩] .

ومن هنا كان العرب في جاهليتهم منحرفين في عقيدتهم عن التوحيد
وكانت نظرهم الى الكون — حتى مع الاقرار بوجود خالق له — نظرة تدل
على سطحية في التفكير ، ولا تخلو من طابع اسطوري يتمثل في الاعتقاد
بأن الاصنام والكواكب تضر وتنفع ، ولذا يتوجه اليها بالعبادة .

وكذلك كان كثير من العرب في الجاهلية — خصوصا داخل
الجزيرة — تسودهم نزعة مادية شكية ، ومن شأن هذه المادية أن تحول بينه
وبين قبول الافكار الدينية ، فكانوا ينكرون مثلا النبوة والبعث لايمانه
بالدهر ، فعرفوا لذلك بالدهرية (١) .

(١) يذكر المستشرق دى بور في كتابه «تاريخ الفلسفة في الاسلام
إن مذهب الدهرية-zurwanismus من زرفان ، «زروان = دهر» من ديانات
الفرس القديمة ، وفيه الغيت النظرة الاثينية للكون (Dualismus) ، وبذا
يأن جعل الزمان الذي لا نهاية له «زرفان = دهر» هو المبدأ الاسمي
واعتبر هو عين القدر والفلك الاعظم أو حركة الافلاك «تاريخ الفلسفة في
الاسلام ، ترجمة الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده ، الطبعة
الثالثة ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ١٢ — ١٣» ، وربما عرف العرب شيئا من
هذا المذهب عن طريق اتصالهم في الجاهلية بالفرس . وقد عني متكلم
الاسلام بالرد على هذا المذهب الذي أصبح مع مرور الزمان في نظر
المسلمين مساويا لانكار الالهية والحياة الاخرى أو القول بالمادية مع انكار
الخالق والقول بقدوم العالم «تعليق الدكتور أبو ريده ، نفس المرجع ، ص
١١٩ — ١٢٠» . وقد وجدنا لابن رشد كلاما عن الدهرية يصفهم فيه
بأنهم جحدوا الصانع ، ومثالههم كمثل من يرى المصنوعات فلم يعترف بأن
مصنوعات بل ينسب ما فيها من الصنعة الى الاتفاق والامر الذي يحدث .
ذاته «الكشف عن مناهج الأدلة ، القاهرة ١٣٢٨ هـ ، ص ٤٩» ، وهذا
الذي يفكره ابن رشد يذكرنا بأراء بعض الفلاسفة الجاهليين في العلم
الحاضر .

وقد صور القرآن عقيدتهم في قوله تعالى : «وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر» (سورة الجاثية - آية ٢٤) .

ويقول صاعقة الاندلسي مبينا موقف القرآن من الدهرية «وجاء نصر القرآن بمخالفتهم» (أي الدهرية) في البعث والنشور ونهية محمد «ص» ، فكان جمهورهم يتكز ذلك ، لا يصدق بالمعاد ، ولا يقول بالجزاء ، ويرى ان العالم لا يخرب ولا يببىد ، وان كان مخلوقا مبدعا» (٧) .

والواقع ان نظرة الدهرية الى الانسان نظرة مادية خالصة فهي تنتظر اليه من خلال واقعه المادى فقط ، وتنتظر الى الكون على انه وان كان حادثا مخلوقا الا انه ازل لا يفنى ولا يببىد ، فليس ثمة حادثا الا الدهر او الزمان ، وليس هناك من بعث ولا نشور ، ولا حساب ولا جزاء .

ولم تكن هذه النظرة عندهم وليدة فلسفة او تفكير منظم ، وانما هي مجرد انطباع عن الكون يدل على سذاجة في التفكير .

ومن هنا وجدت الدعوة الاسلامية صعوبة كبيرة في الانتشار لول الامر لما كان موجودا عند العرب من هذه المعتقدات والآراء المادية ، ولما كان مقتربا بها من عناد شديد وميل الى الجدل وعدم التصديق بسهولة ، وهذا يفسر لنا لماذا طولب الرسول «ص» بخوارق العادات ، على نحو ما يشير اليه قوله تعالى : «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا . او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفيجيرا . او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تأتى بالله والبلائكة قبيلا . او يكون لك بيت من زخرف او ترقى فى السموات ولن نؤمن لرقبك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان زبى هل كنت الا بشرا رسولا» (سورة الاسراء - آية ٩٠ - ٩٣) .

ولم يكن طلب خوارق العادات من الرسول «ص» على هذا النحو

(٧) طبقات الأمم ، ص ٥٧ .

ألا عنادا أو صدا عن الدعوة ، فالقرآن نفسه قد انطوى على الآيات الناطقة
بمصنق الرسول «ص» فيما جاء به وصلاح دعوته للفرد والمجتمع ، ولو
أن أولئك المعاندين حرروا عقولهم من أوهامها ، ونظروا الى القرآن نظرة
عقلية ، لما طالبوا الرسول «ص» بالآيات أو الخوارق ، وإلى ذلك الإشارة
يقوله تعالى : «وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله
وانما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى
ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون» «سورة العنكبوت آية ٥٠ - ٥١» .

وقد حارب الرسول «ص» فيما حارب من اعتقادات الجاهليين
التنجيم والكهانة والعرافة ، وهى من مظاهر بدائية التفكير التى تتعارض
مع العلم الصحيح . فقد نهى الرسول «ص» تهبيا صريحا عن أتباع الكهان
والعرافين^(٨) الذين يزعمون لانفسهم قدرة على الاخبار عن الكوائن فى
مستقبل الزمان ، وعلى معرفة الاسرار ومطالعة عالم الغيب ، كما ابطال
«ص» الايمان بالغيلان^(٩) .

وما له دلالة فى هذا الصدد ايضا ان الرسول «ص» نهى عن الربط
بين ظواهر الطبيعة وبين أى أسباب وهمية لا تمت اليها بصلة^(١٠) ،

(٨) انظر : الحافظ المنذرى : مختصر صحيح مسلم بتحقيق محمد
ناصر الدين الالبانى ، سلسلة احياء التراث الاسلامى التى تصدرها وزارة
الاعراف والشئون الاسلامية بدولة الكويت ، الحديث رقم ٣٣٣ فى النهى
عن أتباع الكهان ، ورقم ١٤٩٦ فى النهى عن أتباع العراف .

(٩) مختصر صحيح مسلم ، الحديث رقم ١٤٨٩ ، يقول المحقق :
«قال جمهور العلماء : كانت العرب تزعم ان الغيلان فى الفلوات ، وهى
جنس من الشياطين تتراءى للناس وتتغول تغولا ، أى تتلون تلونا ،
تقتضلهم عن الطريق فتهلكهم ، فأبطل النبى «ص» ذلك» .

(١٠) قارن هنا ردود ابن حزم الاندلسى على أصحاب التنجيم والسحر
وعلى أولئك الذين يتصورون الكون تصورا ميثولوجيا . وذلك فى الفصل ،
ج ٥ ، ص ٢ وما بعدها ، ج ٢ ، ص ٩٣ وما بعدها ، وهى تدل على علمية
التفكير التى يمكن أن تستمد من أصول الاسلام .

فيوم توفي ابنه ابراهيم حيث كسوف للشمس ظنه الناس معجزة تحدث
لهذه المناسبة ، فقال «ص» : «ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله
لا يتكسبان لموت أحد ولا لحياته» .

هذا ، وقد ذكر القرآن الكريم طائفة من الديانات السماوية وغير
السماوية التي عرفها العرب في جاهليتهم ، والتي انحرف بها أصحابها عن
التوحيد الصحيح الى الوان من الشرك والوثنية ، يدلنا على ذلك قوله
تعالى : «ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس
والذين اشرکوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شيء شهيد»
!سورة الحج آية ١٧ . وقوله تعالى : «ان الذين آمنوا والذين هادوا
والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم اجرهم
عند ربهم» «سورة البقرة — آية ٦٢» .

وتعرض القرآن لذكر مثل هذه الديانات والمذاهب لابد وان يثير عند
المسلم تساؤلات كثيرة حولها ، وحول الفرق بين كل منها وبين العقيدة
الاسلامية .

ولما كانت تلك الديانات والمذاهب لها تصوراتها للكون وعلاقة
الانسان به ، فانه يمكننا القول بان القرآن قد فتح امام العقل بابا واسعا
للنظر في الكون نظرة اساسها المقارنة بين ما جاء به وما جاءت به تلك
الديانات والمذاهب القديمة .

والقرآن يلجأ دائما الى الحجة العقلية في الرد على المخالفين لعقائده
وتفنيد دعاواهم . وحسبنا ان تشير في هذا الصدد — على سبيل المثال
— الى بعض ردود القرآن على مخالفيه :

فمن ذلك رده على مؤلفي الكواكب من الصابئة يمثل هذه الايات التي
تصور حال ابراهيم عليه السلام حين نظر الى الكون واهتدى الى وجود
خالق له بعقله ، وهي :

«وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والارض وليكون من الموقنين .
فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما افل قال لا احب الاولين .»

فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهتدى ربي لأدمن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر . أفلت قال يا قوم انى يرى مما تشركون . انى وجهت وجهى للذى السماوات والارض خنيما وما انا من المشركين «سورة الانعام ٧٥ - ٧٩» .

وهذه الآيات الكريمة لا تصلح فقط للرد على مؤلثة الكواكب ، و هى — فى رأى الفيلسوف ابن رشد — تشير الى علم خص الله به ابراهيم عليه السلام ، وهو علم النظر فى الكون ، واعتبار الموجودات غير بالعقل (١١) .

ويرد القرآن كذلك على من يعتقدون الآلهة (١٢) بمثل قوله تعالى :
كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا «سورة الانبياء آية ٢٢» .

ويرى بعض المتكلمين أن هذه الآية إنما تشير الى الدليل المعروف عندهم بدليل التمايز ، ومؤداه : لو كان للعالم صانعان ، فعما اختلاف هذين الصانعين ، كان يريد أحدهما تخريك جسم والآخر تسكينه أو يريد أحدهما احياءه والآخر إماتته ، فإما أن يحصل مرادهما أو ، أحدهما ، أو لا يحصل مراد واحد منهما .

(١١) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، القا ١٣١ هـ ، ص ٢ ص ٣ .

(١٢) كانت هناك قديما مذاهب تعدد الآلهة ، أبرزها مذاهب المجسمين فمارس على اختلاف صورها ، وكانت هذه المذاهب تنطوى على الإلهاية بأصليين اثنين مدبرين للعالم : النور والظلمة ، أو الخير والشر ، أو يز واهرمين . وقد عرض كتاب الفرق من المسلمين لهذه المذاهب بالرد والتفنيد أنظر عنها ، الشهرستاني ، الملل والنحل ، القاهرة ١٣١٧ هـ ، بها الفصل لابن جزم ، ج ٢ ، ص ٧٢ وما بعدها . وأنظر أيضا ردود ابن على هذه المذاهب فى الفصل ، ج ١ ص ٣٤ وما بعدها .

والاول ممتنع ، لانه يستلزم الجمع بين الضدين ، والثالث ممتنع ،
لانه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون ، ويستلزم ايضا مجز كل
منهما ، والعاجز لا يكون الها .

واذا حصل مراد أحدهما دون الآخر كان هذا هو الاله القادر ، والآخر
عاجزا لا يصلح للالهية (١٢) .

يريد القرآن اذن لعقل الانسان ان يفكر وان يستببط من انتظام امر
العالم وحدة صانعة ، فتدبير هذا الكون لا يكون لالهين أو أكثر لما يقترب
على ذلك من الاختلال فيه . والى هذا المعنى الإشارة أيضا فى قوله
تعالى : «ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله لذهب كل اله بما خلق
ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون» «سورة المؤمنون
آية ٩١» .

ويرد القرآن كذلك على من ينكرون البعث ، أو بعبارة أخرى ينكرون
أن يكون لوجود الانسان فى هذا الكون غاية أبعد لا تتحقق الا فى حياة
أخرى بعد هذه الحياة ، ويخاطبهم بنوع من الاستدلال المباشر ، وهو أنه
ما دمت قد سلمتم بأن الله خلق الانسان أول مرة ، فمن التناقض أن لا تسلموا
بأنه قادر على خلقه مرة أخرى ، فالله لا يكون خالقاً وغير خالق فى آن
واحد ، ثم أى الخلقين أصعب ، خلق السماوات والارض أم خلق الانسان ؟
كل هذا خطاب صريح للعقل يتبين من قوله تعالى :

«أو لم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين . وضرب
لها مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى
أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكل من الشجر الاخضر نارا
فاذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السماوات والارض بقادر على
أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم . انما أمروا اذا أراد شيئا أن يقول له
كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ واليه ترجعون» «سورة
يس آية ٧٧ — ٨٣» .

(١٢) شرح العقيدة الطحاوية فى العقيدة السلفية ، المطبعة السلفية
بمكة المكرمة ، ١٣٤٩ هـ ، ص ٢٠ .

نخلص مما سبق الى القول بأن القرآن الكريم أراد ان يطهر العقول من الاعتقادات الباطلة الموروثة التي سبقت نزوله كالتصورات الميثولوجية التي تفسر الكون تفسيراً اسطورياً ، وكالوثنية والشرك وعبادة الافراد وتعدد الالهة ، وتاليه الدهر أو الطبيعة ، وانكار الغائية في الكون وفي حياة الانسان ، وانكار البعث وما الى ذلك .

فماذا تخلص العقل الانساني عن مثل هذه العقائد والتصورات الباطلة التي لا يقوم عليها دليل أو برهان ، استطاع ان يقبل متحرراً من كل قيد على النظر في الكون نظرية موضوعية فاحصة يتوصل منها الى الايمان بوجود خالق له ، وإلى فهم صلته بهذا الكون وبخالقه ، ورسالته في هذه الحياة الدنيا .

وهذا يقودنا الى الكلام عن الخطوة الثانية في المنهج الذي يهدينه القرآن اليه ، وسنحاول ان نلقى فيما يلي مزيداً من الضوء عليها :



الخطوة الثانية في منهج البحث الكوني تتمثل في اصطلاح الاستدلاليين القياسي والاستقرائي .

على انه يجب ان تثبه بادية ذي بدء الى ان القرآن ليس كتاباً في المنطق ، ولكنه يحتوى على الاصول العامة للدلائل العقلية ، أما تفصيلاته فليس من وظيفة القرآن ان يتعرض لها ، ويكفى القرآن انه ينبه الى مثل تلك الدلائل الاجمالية ليمضي العقل البشري بعد ذلك الى وضع تفاصيله وكشف قوانينها وطرق استخدامها .

ومما يلاحظه القارئ للقرآن ان الخطاب فيه موجه أساساً الى العقول السليمة بأوضح استدلال وأيسره ، وإلى القلوب الصافية بابل بيان وأوجزه . ولا يعلو عليه في هذا شيء مما كتب الفلاسفة والمفكرين على اختلاف بيئاتهم وأزمانهم ، بدليل ما أحدثه من الاثر الفكري الهائل في حياة البشرية منذ نزول الوحي به الى اليوم .

وقد فطن الى ذلك كبار المشتغلين بالفلسفة والمقولات من المسلمين

حُفِّكُوا أَنَّهُ قَدْ انطوى على مختلف أنواع الحجج والبراهين بحيث لا يمكن أن يزداد عليه في هذا شيء ، ومن هؤلاء الإمام الغزالي إذ يقول : «أول ما يستضاء به من الأبواب ، ويسلك من طريق النظر والاعتبار ، ما أرشد إليه القرآن ، فليس بعد بيان الله بيان» (١٤) .

ويقول الإمام فخر الدين الرازي ، أحد أئمة الأشعرية من المتكلمين : «نقى كتابه «الأربعين» في الكلام : «أقر الكل بأنه لا يمكن أن يزداد في تقرير الدلائل «العقلية» على ما ورد في القرآن» (١٥) .

والحقيقة أننا لو نظرنا إلى القرآن نظرة متأنية لوجدنا أنه ينبه العقول إلى استخدام أنواع الاستدلال العقلية المختلفة ، مباشرة كان أو غير مباشر فهو كما يدعو إلى استنباط نتيجة من مقدمة أو مقدمات ثبتت صحتها في معرض الاستدلال على العقائد النظرية ، (انظر الآيات من آخر سورة يس آية ٧٧ — ٨٣) نواه يدعونا أيضا إلى استخدام المشاهدة الحسية واستقراء الجزئيات من عالم الطبيعة ليصل بنا إلى معرفة القوانين العامة التي تسير هذه الطبيعة بمقتضاها .

فمن الآيات التي تدل على استخدام القياس العقلي قوله تعالى : «فاعتبروا يا أولى الأبصار» (سورة الحشر — آية ٢) . ويرى الفيلسوف ابن رشد أن الاعتبار المشار إليه في هذه الآية هو القياس بنوعيه ، العقلية والفقهية (١٦) . فكان الآية إذن تأمرنا على سبيل

(١٤) أحياء علوم الدين ، القاهرة ١٣٣٤ هـ ، ج ١ ، ص ٩٣ .
(١٥) بدر الدين الصنعاني : ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ، ص ١٧ .
(١٦) القياس لغة : التقدير ، يقال قسبت النعل بالنعل إذا قدرته ومسويته ، وهو عبارة عن رد الشيء إلى نظيره (تعريفات النجرجاني ، مادة «القياس») والقياس عند المناطقة اصطلاحاً هو قول مؤلف من قضايا إذا سلمت لزم عنها لذاتها قول آخر . ومن أمثلة القياس العقلية قولنا : كل جسم مؤلف ، وكل مؤلف حادث ، فلزم أن كل جسم حادث ، ومن أمثلة القياس الفقهية قولنا : كل نبيذ مسكر ، وكل مسكر حرام ، فلزم أن كل نبيذ حرام (المستصفى للغزالي ، ج ١ ، ص ٣٨ — ٤٢) .

الوجوب الوجوب باستخدام القياس بنوعيه المشار اليهما . وفى الحق
أن فهم ابن رشد لمعنى الاعتبار فى هذه الآية ليس قريباً ، لان الاعتبار
«النظر فى الحكم الثابت لاي معنى ثبت» ، والحق نظيره به ، وهذا
القياس» (١٧) ، على حد تعبير الجرجاني فى «التعريفات» .

ومن الآيات التى تدل على استخدام الاستقراء ، والنظرة الملأ
الفاحصة عن الأشياء وكيف تتركب ، قوله تعالى : «أفلا ينظرون الى الآ
كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت ، والى
الارض كيف سطحت» (سورة الفاشية ، آية ١٧ — ٢٠) .

وتأمل كلمة «كيف» فى هذه الآيات لترى أنها تعبر عن روح الـ
الحديث كله ومنهجه . ذلك ان العلم — فى مفهوم علماء مناهج البـ
المحدثين — هو أجابة عن السؤال «كيف» ، وليس أجابة عن المسـ
«لماذا» . بعبارة أخرى العلم يعنى ببيان كيف تتركب الظاهرة ، ولا يع
بالبحث عن الغاية منها .

فالقرآن حين يدعونا الى البحث فى كيفية خلق الحيوان والكوا
والارض إنما يمدنا بالمتهج الصحيح للبحث الاستقرائى فى علوم شـ
كعلوم الحياة والفلك والجيولوجيا والجغرافيا وغيرها ، دون أن يكر
القرآن نفسه كتابا يتناول موضوعات هذه العلوم الجزئية .

ومما له دلالة فى هذا الصدد أيضاً قول الله تعالى : «ان فى خـ
السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البـ
بما ينفع الناس وما أنزل من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبـ
فيها من كل دابة» ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض
آيات لقوم يعقلون» (سورة البقرة ، آية ١٦٤) . فهذه الآية الكريـ
تدلنا على أن أفراد البشر الذين يعقلون — أى يستخدمون عقولهم استخدأ
سليماً — هم الذين ينظرون فى خلق السموات والارض ، وفى الظواهر

(١٧) تعريفات الجرجاني ، مادة : «الاعتبار» .

الكونية على اختلافها وهم الذين يربطون في نظرتهم تلك بين الاسباب والمسببات فيعرفون كيف خلقت السماوات والارض ، وكيف يتعاقب الليل والنهار ، وكيف تسير السفن في البحار ، وكيف ينزل المطر ، وما هي عوامل نزوله ، وكيف يرتبط بعضها ببعض الآخر ، ويعرفون كيف تحيا الدواب على هذه الارض وعلى حياتها ، وما الى ذلك .

وينبه القرآن الى ان النظام الكوني مطرد السنن له قوانين لا تتبدل وهي ما نصل اليه بالاستقراء العلمى القائم على المشاهدة الحسية ، والى ذلك الاشارة بمثل قوله تعالى : « لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » «سورة يس ، آية ١٠» .

وكذلك الاجتماع القبري له قوانين لها نفس الاطراد والثبات ، ويمكن معرفة ذلك بالاستقراء التاريخي ، والى ذلك الاشارة بمثل قوله تعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » (سورة الرعد - آية ١١) «سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا» (سورة الفتح - آية ٢٣) ، «نطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله» (سورة الروم - آية ٣٠) .

على ان الاتساع لا يستطيع ان يصل من التامل في الكون الى معرفة نظامه وقوانينه الا اذا وثق بنفسه أولا ، وآمن بان الكون المشاهد خاضع لدراكه وبحثه ، وبان ظواهره ليست بالشيء المبهم الغامض الذي لا يفسر ، وبان في مقدوره الاستفادة من الكون واستغلال خيراتہ على اوسع نطاق لتأمين حياته ورفاهيتها .

من اجل هذا ذكر القرآن للانسان ان الكون كله مسخر له ، وتامل في قوله تعالى : «وسخر لكم ما في السماوات وما في الارض جميعا منه» (سورة الجاثية - آية ١٣) ، وقوله تعالى «وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون وما ذرا لكم في الارض مختلفا لوانه ان في ذلك لآية لقوم يفكرون . وهو الذي سخر البحر لتاكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها

وفرى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . والقي ٤
 الارض رواسى أن تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعسلا
 وبالنجم هم يهتدون . اقم يخلق كمن لا يخلق افلا تتكرون . وان تعبد
 تعبد الله لا تحصوها ان الله لعفور رحيم» (سورة الفحل - آية ١٢ - ٨
 لقرى ان توجيه القرآن فى هذا الصدد مضاد تماما للتصورات الكونية
 الميتولوجية القديمة التى جعلت الإنسان البدائى يستشعر الخوف
 الكون ، ويعتبره خارجا تماما عن نطاق عمله وقدرته ، ويقسر ظواهره
 المختلفة بعامل وهمية خيرة أو شريرة ، أو آلهه يسترضيها بالوان
 الطقوس البدائية .

ان تأكيد القرآن على ان الكون كله مسخر للإنسان هو فى نف
 الوقت تأكيد على روح المنهج العلمى الصحيح الذى يحاول دائما استكش
 ماهو مجهول من هذا الكون وظواهره على أساس من الثقة بقدره الانس
 وبالعلم فى مواجهة الطبيعة .

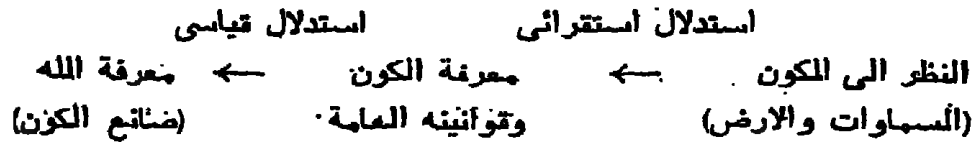
وثمة ملاحظة هنا على جانب كبير من الاهمية وهى انه حينما ي
 الحائز الى الاستفادة من الكون بمنهج العلم هو عقيدة الانسان الدينية
 ورغبته فى التقرب الى الله ، والظفر بثوابه فى حياة اخرى ، فانه ي
 حافزا قويا للغاية . ومن الآيات القرآنية ذات الدلالة العميقة فى هـ
 الصند قوله تعالى : «لو لم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما
 الله من شئ وان عسى أن يكون قد اقترب اجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون
 (سورة الاعراف - آية ١٨٥) .

لقد اعتبر الله تعالى العلم بالخلوقات على اختلافها من أهم الام
 الصالحة التى يجب على المسلم ان يحسب لها حسابا فى ميزان أعماله
 الحياة الاخرى ، فعليه ان يبذل قصارى جهده من اجل استكناه ال
 وما فيه من موجودات ، وذلك قبل ان يفاجئه اجله وهو أغفل ما يكون .

ولهذا ذهب بعض علماء العقائد فى الإسلام الى حد القول بأن الاست
 للعقل من الأصول المقررة فى الإسلام ، فالى جانب المعتزلة الذين أو
 بحكمة الله بالعقل ، نجد الأشعرية ايضا يوجبون على كل مكلف الاست

على وجود الله بمقله ، ويقولون : لا يكون مسلما الا من استدل (١٨) .
ويمكننا القول مما سبق كله بان القرآن الكريم قد حدث الانسان على
اصطناع منهج العلم الذي يتلخص في النظر الى الكون بالقياس والاستقراء
او بهما معا (١٩) من اجل الوصول الى معرفة قوانينه العامة ، ثم مواصلة
السير بعد ذلك الى معرفة الله .

ويمكننا ان نوضح ذلك بالرسم البياني التالي :



هناك اثنان مرحلتان يسير فيهما الناظر الى الكون .
للمرحلة الاولى يستخدم فيها الناظر استدلالا استقرائيا يكشف به عن
الاسباب والمسببات ، ويتوصل منه الى صياغة القوانين العامة التي تخضع
لها الموجودات .

والمرحلة الثانية يستخدم فيها تفكرا عقليا اساسه الاستدلال القياسي
ويقتهى منه الى اثبات وجود صانع مدبر للكون عن طريق ما يشاهده فيه
من غائية الظواهر التي لا تفسرها له المصادفة .

وبهذا ينطلق الناظر من معرفة المصنوعات الى معرفة الصانع ،
و «كلما كانت المعرفة بصنعتها اتم كانت المعرفة بالصانع اتم» (٢٠) على حد
تعبير ابن رشد .

(١٨) ابن حزم ، الفصل في الملل والاهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ٣٥ .
(١٩) المنهج العلمي لا يكمل الا باستخدام الاستقراء والقياس معا .
اذ انه بعد ان يتوصل العالم من استقراء الجزئيات من عالم الطبيعة الى
القانون العام او القانون العلمي ، يعود فيطبق هذا القانون على جزئياته
جديدة مستخدما القياس ، فالعالم لا غنى له عن استخدام الاستدلاليين
الاستقرائي والقياسي معا .
(٢٠) فصل المقال ، ص ٢ .

والى هذا المعنى نفسه يشير أحد العلماء المعاصرين وهو البروفيسور ماكومب ونشرت بقوله : «ان الإنسان لا يستطيع ان يدرس اعمال أى صانع من الصناعات دون أن يحيط بقدر من المعلومات عن الصانع الذى أبدع تلك الاعمال» وكذلك نجد اننا كلما تعمقنا فى دراسة اسرار هذا الكون ازداد معرفتنا بطبيعة الخالق الاعلى الذى أبدعه (٢١)

ولقد اشار القرآن الى المرحلتين اللتين ذكرنا فى قوله تعالى : —

«ان فى خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار آيات لاوا الالباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ففنا عذاب النار» (سورة آل عمران — آية ١٩٠ — ١٩١) .

وقد يقف بعض الناظرين عند المرحلة الاولى ، ولا يتجاوزونها الى الثانية ، وهؤلاء «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة ، غافلون» (سورة الروم آية ٧) ، انهم قد وصلوا الى منتصف الطريق وفاتهم الغرض البعيد من البحث فى آيات الله الكونية فكانوا بذلك محجوبين عن الحقيقة ، محصورين فى دائرة المادة لا يستطيعون الخروج منها ، وما وراءها آثروا النفع العاجل على النفع الآجل ، وشغلوا بالوسائل والغايات «ذلك مبلغهم من العلم» (سورة التجم — آية ٣٠)

وما لجبل هذا المعنى حين يعبر عنه ابن عطاء الله السكندرى ، «الحكم» بقوله : «الكائن فى الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجور ومحيطاته ، ومحصور فى هيكل ذاته» (٢٢) .

(٢١) انظر مجموعة مقالات لبعض العلماء المعاصرين نشرها جون كلود مومبما فى كتاب بعنوان : «الله يتجلى فى عصر العلم» ، الترجمة العربية : غابر إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ص ١٠٧ .

(٢٢) شرح الرندى على الحكم ، القاهرة ١٢٨٧ هـ ، ج ٢ ، ص ٩٧

أما ما يراه البعض من ضرورة الموضوعية والاعتماد على التجسرية
الحسية واخضاع الظواهر للقياس الكمي في البحث العلمي ، فهذا ولاشك
من خصائص المرحلة الاولى ويبقى بعد ذلك أن يسير العالم من المرحلة الاولى
وهي العلم ، الى المرحلة الثانية ، وهي الايمان ، وذلك اذا اراد أن يحقق
انسانيته ، وأن يجعل لحياته معنى . ان نهاية العلم في الحقيقة هي بداية
الايمان الصحيح لا الايمان التقليدي ، وتأمل عمق المعنى في قوله تعالى :
«تِلْكَ هِيَ السُّبُلُ الَّتِي يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» (سورة الزمر - آية ١٧) ،
وقوله تعالى : «أَنَّا يَخْتِي اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ» (سورة فاطر - آية ٢٨)

صورة الكون

والآن بعد أن تبين لنا اتفاق الإسلام مع العلم روحاً ومنهجاً . وأنه يوجه العقل البشرى الى خطوات منهج متكامل للكشف عن اسرار الكون وما فيه من كائنات وقبل أن نمضى الى الحديث عن صورة الكون ومكان الانسان فيها فى القرآن الكريم . لنرى الى أى حد تتفق مع تلك التى يمدنا العلم الحديث بها . نحب أن ننبه القارئ الى حقيقة هامة . وهى أن القرآن الكريم ليس كتاب علم يشتمل على نظريات فى علوم الكون . . ان كل ما يشتمل عليه القرآن متعلقاً بالكون ونشأته وتطوره لا يعدو الحقائق العامة المجردة التى يأتى العلم بعد ذلك ليكشف عن تفاصيلها . ومن هنا لا نرى أن يقحم الدين بمناسبة وغير مناسبة فى تفسير الظواهر الكونية . اذ ليس هذا من شأن الدين .

ونذكر هنا قول الرسول (ص) «**انتم اعلم بشئون دينكم**» .

والحقيقة هى ان القرآن حينما يشير الى الظواهر الكونية انما يشير اليها على سبيل ايقاظ العقل من سباته ليتفهم هذه الظواهر ويفسرهما التفسير العلمى الصحيح لمعاراته أشبه شئ بالومضات القوية التى تثير أمام هذا العقل السبيل الى التوصل الى علم صحيح بالكون وقوانينه .

ومن المعروف ان العقل البشرى يثير بطبيعته تساؤلات عديدة حول الكون :

هل الكون حادث أو قديم ؟ وإذا كان حادثاً فكيف حدث ؟ وهل يتناهى أو لا يتناهى ؟ وهل توجد اكون أخرى أو لا توجد ؟ وما هى جلة ما فى هذا الكون من النظام والاحكام ؟ وهل له غاية ؟

كان لابد للقرآن الكريم من أن يلبي احتياجات البشر العقلية في ا
على مثل تلك التساؤلات .

لقد قرر القرآن الكريم حقائق كثيرة تتعلق بالكون أهمها أنه حـ
مخلوق ، وكل ما فيه من الكائنات له بداية ونهاية ، وليس ثمة موجود
أبدى إلا الله «الخالق البارئ المصور» (سورة الحشر — آية ٢٤
«بديع السماوات والأرض» (سورة البقرة — آية ١١٧) ، و «هو
والآخر» (سورة الحديد — آية ٣) ، وإليه ترجع الموجودات كلها من
هو علتها الأولى ، لقوله تعالى : «وان إلى ربك المنتهى» (سورة النـ
آية ٤٢) ، والمتصفح للقرآن يرى أنه يقرر في وضوح لا لبس فيه الثنائـ
الله والعالم (٣) . ومن الحقائق عن الكون أنه غير مصور في مداركنا .

(٣) على الرغم من وضوح هذه الثنائية بين الله والعالم في نص
القرآن ، ذهب بعض مفكرى الإسلام إلى القول بفيض العالم أو صـ
من الله ، وهذا هو عين مذهب افلوطين المكندى في الفيض أو الصـ
(Emanation) ومن هؤلاء بعض فلاسفة الإسلام وعلى الأخص الفـ
حى نظريته في فيض العقول ، وترتب الموجودات عن الأول . ومع أا
بالفيض أو الصدور تنتفى فكرة الخلق من المصـم (creation ex nihilo)
وكذلك تصور بعض غلاة الشيعة كالإسماعيلية العالم على أنه سلسلة
الفيضات عن المبدأ الأول على نحو خاص يتفق مع نظريتهم في الإمامـ
وكذلك ذهب متفلسفة الصوفية من أصحاب وحدة الوجود (monism)
كأبن عربى إلى القول بأن العالم موجود بواسطة الحقيقة المحمدية
هـى أول تعين فاضت عنه سائر التعينات الأخرى مادية كانت أو رو
«أنظر كتابنا ، علم الكلام وبعض مشكلاته ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٩٣»
وجميع القائلين بالصدور من مفكرى الإسلام يعمدون إلى تأ
نصوص القرآن تأويلات فلسفية خاصة لتبدو متفقة مع ما يذهبون إليه
من مذاهب ، والحديث عن هذه التأويلات يخرجنا عن موضوع هـ
البحث .

أما المتكلمون من المسلمين فقد عبروا عن الثنائية بين الله والمـ
قائلين : «ليس في الوجود إلا الخالق وخلق» «الفصل لابن حزم ، ج ١
ص ٩٩» ، وكل ما في الكون دون الله جواهر وأعراض «نفس المرجع
ج ٣ ، ص ٩٠-٩١ ، ص ٩٤ ، ج ٥ ص ٤٩» وقد أوجده الله على سبيل

يشير القرآن الى ان هناك عوالم ومخلوقات اخرى لا نعلم نحن عنها شيئا ،
فيقول تعالى : «ويخلق ما لا تعلمون» (سورة النحل - آية ٨) .

وكيف يمكن ان نحيط بالفضاء الخارجى والعوالم التى من فوقنا
لا خصر لها والمسافات التى بينها لا يتصورها عقل انسان ؟ اننا ننتمى الى
كرة الارض ، وهى تنتمى الى مجموعتنا الشمسية ، ومجموعتنا الشمسية
تقع فى مجرة تحتوى على ملايين المجموعات الشبيهة بها ، وفى الكون
ملايين المجرات ، والمسافات بينا وبين النجوم تقاس احيانا بالآف السنين
الضوئية ، وسرعة الضوء ٣٠٠.٠٠٠ كيلو متر فى الثانية الواحدة !

ان الانسان اذا تأمل هذا الكون لا يمكن له الا ان يسلم بان نسبته ،
بكرته الارضية كلها ، الى العوالم الاخرى التى خلقها الله نسبة توجب
تلاشية !

هذا اذا نظرنا الى العالم الاكبر (macrocosme) ، اما اذا نظرنا الى
الانسان نفسه فسنجده مالمًا قائما بذاته ، وهو لا يزال مجهولا من نفسه
الى الآن ، ولم يدرك بعد اسرار كثير من وظائف جسمه وعقله ، ولا يعرف
ما هو مصيره بعد الموت بامكانياته المادية التى يفتر بها .

اما اذا نظرنا الى عالم الاشياء المتناهية فى الصغر (microcosme)
فسنجد الخرة من حيث تكوينها شبيهة بالمجموعة الشمسية ، وسنجد كائنات

الالاختراع والابداع واحداث الشيء من لاشئ بمعنى اخراجه من العدم الى
الوجود «تنفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٦٤» .

واما المعتدلون من مسوفية الاسلام من اهل السنة ، فيقولون ان
الثنائية بين الله والعالم قائمة ، ولكن الصنوفى فى حال الفناء من ذاته
يشهد الوحدة فى الوجود كله شهودا فوقيا بمعنى تلاشى الوجودات
بالقياس الى الله كما يتلاشى ضوء الشمعة فى ضوء الشمس . وهذه
الوحدة الشهودية قائمة على اساس الذوق والعيان لا الاستدلال والبرهان .
قارن كتابنا ، ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ، الطبعة الثانية ، القاهرة
١٩٦٩ ، ص ٣٠٤ وما بعدها .

ذات خلية واحدة لها جميع وظائف الحياة ، يقول سيسل هامان : «عندما تذهب الى المعمل ونفحص قطره من ماء مستنقع تحت المجهر لكى نشاهد سكانها ، فاننا نرى احدى عجائب هذا الكون : فتلك الاميبا تتحرك فى بطنه ، وتتجه نحو كائن صغير فتحوطه بجسمها فاذا به فى داخلها ، واذا به يتم هضمه وتمثيله داخل جسمها الرقيق ، بل اننا نستطيع ان نرى فضلاته تخرج من جسم الاميبا قبل ان نرفع اميتنا عن المجهر . فاذا لاحظنا هذا الحيوان فترة اطول ، فاننا نشاهد كيف ينشطر جسمه شطرين ، ثم ينمو كل من هذين الشطرين ليكون حيوانا جديدا كاملا ، تلك خلية واحدة تقوم بجميع وظائف الحياة التى تحتاج الكائنات الكبيرة الاخرى فى ادائها الى آلاف الخلايا او ملايينها . لا شك فى ان صناعة هذا الحيوان العجيب الذى يبلغ من الصغر حد النهاية تحتاج الى اكثر من مصادفة» (٢٤) .

الحقيقة ان النظر فى الكون او الافاق البعيدة بعدا شاسعا ، والنظر فى الانسان والكائنات الدقيقة جدا ، يدلنا على آيات الخالق التى لا حصر لها ، والتى ستجلى للانسان دائما وابدا ، وصدق الله تعالى اذ يقول «سنفريهم آياتنا فى الافاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق او لم يكف بربك انه على كل شئ شهيد» «سورة الانعام ، آية ٥٣» .

واذا كنا لم نخط بعد علما بالكون المحسوس ولا بانفسنا ، فكيف نزع ادراك كنه الخالق وما اعمق المعنى فى قوله تعالى ، «لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار» «سورة الانعام ، آية ١٠٣» .

واذا تبين هذا كله نقول : اننا لا نستطيع بحسب القرآن ولا بحسب ما توصل اليه العلم الحديث ان نجزم بأن الكون يتناهى او لا يتناهى ، وكل ما نعلم عنه هو انه غير محصور فى مداركنا .

واذا كان الكون بحسب ما ورد فى القرآن حادثا ، وله محدث هو الله ، فمن الطبيعى ان القول بأن الكون قد نشأ اتفاقا او عن طريق المصادفة

(٢٤) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ١٢٢ .

يكون متعارضاً مع القرآن ، ومع ما جاء به من عقائد . بل انه يتعارض مع العلم ذاته ، يقول جون أدولف بوهر : «عندما يطبق الانبساط قوانين المصادفة لمعرفة مدى احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في الطبيعة ، مثل تكون جزيء واحد من جزيئات البروتين من العناصر التي تدخل في تركيبه ، فأننا نجد عمر الأرض ، الذي يقدر بما يقرب من ثلاثة بلايين من السنين أو أكثر لا يعتبر زمناً كافياً لحدوث هذه الظاهرة وتكوين هذا الجزيء عن طريق المصادفة . ان ذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا كانت هناك قوة موجهة تهدف الى غاية محدودة ، وتعطينا على ادراك كيفية يخرج النظام من الفوضى» (٢٥) .

ومما يظهرنا القرآن الكريم بعد هذا عليه أن العوامل المتعددة التي يشتمل عليها الكون لم تخلق في وقت واحد ، فمنها ما هو سابق ومنها ما هو لاحق .

يقول تعالى : «وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام» (٢٦) وكان عرشه على الماء» «سورة هود ، آية ٧» .

وقد تساءل بعض المسلمين في عصر النبي «ص» عن بداية العالم ، فذكر البخاري وغيره قال ، أهل اليمن لرسول الله «ص» جئتكم لنتفق في الدين ، ونسألك عن أول هذا الأمر ، فقال : «كان الله ولم يكن شئ قبلة أو معه أو غيره وكان عرشه على الماء» .

(٢٥) الله يتجلى في عصر العلم ، ص ١٠٢ — ١٠٣ .

(٢٦) ليس المقصود هنا باليوم اليوم المعروف لنا، فهناك نسبية في حساب أيام الله أشار إليها القرآن نفسه ، فمرة يفكر على أنه ألف سنة «سورة الحج ، آية ٤٧» ، ومرة أخرى يفكر على أنه خمسون ألف سنة مما تعرف «سورة الماعج ، آية ٤» ، وقد يكون أكثر من ذلك حسب ما يقدر الله له .

ويقول شارح العقيدة الطحاوية موضحا المقصود من هذا الحديث :
«ان قول أهل اليمن ، جئنا نسالك عن أول هذا الامر ، وهو اشارة الى
حاضر موجود مشهود «أى الكون المرئى» . والامر هنا بمعنى المأمور ،
أى الذى كونه الله بأمره» .

«وقد اجابهم النبى «ص» عن بدء هذا العالم الموجود لا عن جنس
المخلوقات «التي منها ما يتعلق بعالمنا ومنها ما لا يتعلق به» لانهم لم يسألوه
عن ذلك» .

«وقد اخبرهم عن خلق السماوات والارض .. ، فظهر ان مقصوده
اخباره اياهم ببدء السماوات والارض وما بينهما ، وهى المخلوقات التى
اُخلقت فى ستة ايام : لا ابتداء خلق ما خلقه الله قبل ذلك» .

«ولا يظن ان معناه «أى معنى الحديث» الاخبار بتعطيل الرب تعالى
دائما عن الفعل حتى خلق السماوات والارض» .

«وايضا نقوله : «كان الله ولم يكن شئ قبله او معه او غيره وكان
عرشه على الماء» لا يصح ان يكون المعنى انه تعالى موجود وحده لا مخلوق
معه أصلا ، لان قوله : «وكان عرشه على الماء» يرد ذلك ، فان هذه
الجملة ، وهى «كان عرشه على الماء» فان حاله او معطوفة ، وعلى كلا
التفسيرين فهو ، «أى العرش» ، مخلوق موجود فى ذلك الوقت . فعلم
ان المراد من قول الرسول «ص» ، ولم يكن شئ من العالم
المشهود» (٢٧) .

لقد اثبتنا هذا الكلام لشارح العقيدة الطحاوية بنصه لانه على جانب
كبير من الاهمية ، فهو يوضح لنا ان فى القرآن والسنة ما يفيد ان ثمة
مخلوقا آخر كان موجودا قبل خلق هذا الكون الذى نراه ، ومنه تشكل هذا

الآخر بما فيه . وهذا يعنى بعبارات أخرى أن هذا الكون لم يكن على ما هو عليه ، ولم يتم خلقه بصورة مكتملة دفعة واحدة ، بل كان هناك ترتب زمانى فى خلق الكائنات ، بل وتطور فى عملية الخلق ذاتها . وهذا متفق تماما مع ما يذهب اليه العلم الحديث الذى يحدد لأجرام المجموعة الشمسية وللأرض أعمارا بواسطة حساب الإشعاع ، ويعين أزمانها التى نشأت فيها على سبيل التدرج (٢٨) .

(٢٨) فى بحث طريف لزميلنا الدكتور زغلول النجار الأستاذ المساعد بقسم الجيولوجيا بكلية العلوم بجامعة الكويت ، عنوانه «محاولات الإنسان لتقدير عمر الأرض» معلومات وافية عن طريقة الإشعاع فى حساب عمر الأرض وأجرام المجموعة الشمسية ، نقتطف منه هذه النتائج التى توصل إليها العلماء فى هذا الصدد . يقول سيادته : أن أقصى حد لتكوين العناصر فى مجرتنا هو ٧٠٠٠ مليون سنة ، ومن ذلك استنتج العلماء ما يلى :

أولا : أن العناصر فى مجرتنا قد تكونت فى الفترة من ٧٠٠٠ الى ٦٥٠٠ مليون سنة .

ثانيا : أن الشمس قد تكثفت على هيئتها الحالية منذ ٦٠٠٠ مليون سنة .

ثالثا : أن الكواكب الابتدائية قد تحولت الى كواكب عادية منذ ٥٠٠٠ مليون سنة .

رابعا : أن الفصل الكيميائى فى أجسام الكواكب قديم منذ ٤٥٠٠ مليون سنة .

خامسا : أن القشرة الخارجية للأرض قد تكونت بصورة دائمة منذ ٤٠٠٠ مليون سنة .

سادسا : أن أقدم أثر للحياة ظهر على الأرض منذ ٣٠٠٠ مليون سنة .

سابعا : أن الحياة ظهرت بصورة مزدهرة منذ ٦٠٠ مليون سنة ، «بينما ظهر الإنسان على سطح الأرض منذ مليون سنة» ويقول الدكتور زغلول : «وبذلك استطاع الإنسان الإجابة على ذلك السؤال المحير : منذ متى كانت الأرض ، إجابة مدعمة بالاستنتاجات المنطقية المجردة هى

ومما يدلنا أيضا على أن الكون قد خلق بمسا فيه من عوالم متعددة بالتدريج وليس دفعة واحدة قوله تعالى : «الحمد لله رب العالمين» «سورة الفاتحة ، آية ٢» .

وبيين لنا شارح العقيدة الطحاوية أن من بين المعاني التي تتضمنها كلمة «رب» «التربية» ، وهي تبليغ الشيء كماله بالتدريج» (٢٩) .

وهذا هو عين ما يفهم من التطور Evolution في الخلق ، أي أن الخلق لا يتم دفعة واحدة ، وإنما عنى مراحل ، من الأدنى إلى الأعلى ، أو من الأقل كمالا إلى الأكثر كمالا . ولعل هذا المعنى يفهم أيضا من قوله تعالى : «يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير» «سورة فاطر» آية ١» .

ففكرة التطور ذاتها ليست مخالفة للقرآن وإنما الذي يخالفه هو القول بأن هذا التطور المشاهد في الكائنات علويها وسفليها يتم عن طريق المصادفة وليس عن صانع مدبر حكيم .

والظاهر من القرآن الكريم بعد ذلك أن الكون كان وحدة متصلة تكثرت بعد ذلك الموجودات عنها . ولعل هذا المعنى يستفاد من قوله تعالى : «أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما» «سورة الانبياء ، آية ٣٠» .

أما المادة التي تشكلت منها الاجرام السماوية فتوصف في القرآن بأنها «دخان» . يقول تعالى : «ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها

الخرافات والحدس والتخمين ، فكانت الأرقام السابقة ، والعلم لا يدعى أن هذه الأرقام لا تقبل التفسير ، فقد تؤكد الدراسات المستقبلية أو تحورها ولكن الحقيقة الثابتة هي أن الأرض ليست أزلية بل مستحدثة» محاضرات الموسم الثقافي لجامعة الكويت ، ١٩٦٨ - ١٩٦٩ ، المطبعة العصرية بـالكويت ، ص ٥٠٣ .

(٢٩) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٦٨ .

والأرض اتينا طوعا أو كرها قائلنا اتينا طائعين» (٢٠) .

وأما مادة الكائنات الحية التي منها نشأت وتطورت فهي «الماء» لقوله تعالى «وجعلنا من الماء كل شيء حي» «سورة الانبياء ، آية ٣٠» .

ومما يستوقف الذهن البشرى حقيقة إشارة القرآن الى أن أصل الكائنات جميعا واحد ، وهي تتكون من زوجين اثنين ، يقول تعالى : «ومن كل شيء خلقنا زوجين» «سورة الذاريات ، آية ٤٩» ، ويقول تعالى : «سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون» «سورة يس ، آية ٣٦» .

وقد يطمئن عقل الإنسان الى معانى مثل هذه الآيات بعد أن اكتشف العلم الحديث وحدة التركيب الذرى للكائنات على اختلافها ، وأن الذرة الواحدة تتكون من الكترون وبروتون .

وقد صور لنا الفيلسوف المعاصر برتراند رسل العالم الطبيعى بعد اكتشاف اينشتاين لنظريته فى النسبية (٢١) قائلا : «درسنا العالم الطبيعى فوجدنا أن المادة عند العلم الحديث قد فقدت صلابتها وعنصريتها إذ حلها

(٢٠) سورة فصلت ، آية ١١ ، ومن الافتراضات العلمية الآن انه فى أول تاريخ مجرتنا كانت هناك سحابة من غبار ذى تركيب كونى يشبه السديم ، واخذت واحدة من سحابات عديدة تتكثف على هيئة نجوم تشبه الشمس بينما دار حولها قرص من غبار وغاز سرعان ما تكسر الى قوامات ذوات حجوم وترتيب مختلف فى داخل أى منطقة نصف قطرية يزداد حجمها كلما بعدت عن الشمس وبالتحام هذه الدوامات عند التقائها أصبحت كتلا منفصلة من الغاز على أبعاد نصف قطرية عن الشمس . وقد أطلق العلماء على هذه الكتل المنفصلة اسم الكواكب الابتدائية .

«انظر الدكتور زغلون ، محاولات الإنسان لتقدير عمر الأرض ، محاضرات الموسم الثقافى ١٩٦٨ - ١٩٦٩ ، لجامعة الكويت ، ص ٥٠٢» .

(٢١) موجز الفلسفة ، ترجمة الاسفاذ الدكتور زكى نجيب محمود ، بعنوان «الفلسفة بنظرة علمية» مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٠ ، ص ٢٥٨ .

العلماء الى مجموعات ذرية ، كل مجموعة منها تنحل الى ذرات ، وكل ذرة تعود بدورها فتتحل الى كهارب موجبة وكهارب سالبة» .

ولعل من الآيات القرآنية التي اتضح معناها على ضوء ما وصل اليه الفيزياء المعاصرة من هذه النتائج ، قول الله تعالى : «وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي اتقن كل شيء» «سورة النمل ، آية ٨٨» .

فالجبال وما اليها من الاجسام المادية مدركة لنا على انها ثابتة صلبة وليس الامر كذلك ، فهي عبارة عن عدد هائل من الذرات المنطوية على كهارب موجبة واخرى سالبة ، مردها الى اشعاعات فهي لذلك أشبه شئ بالسحاب من حيث انه عارض ومتخلخل . يقول برتراند راسبل «ثم مضى العلماء فى التحليل فحللوا هذه الكهارب نفسها» «التي تتكون منها الذر الى اشعاعات ..» وللفيزياء النظرية جانب آخر هو نظرية النسبية وهي نظرية ذات نتائج فلسفية هامة ، منها تحويل المسالم الطبيعى المتصل من الحوادث ذى اربعة ابعاد بعد ان كان سلسلة من حالات ذوات ثلاثة ابعاد لعالم مؤلف من قطع من المادة لها صلابة وثبات» ، ثم هو يقر بعد ذلك : «وليس فى علم الفيزياء ما يبرهن على ان الخصائص الذاتية للعالم الطبيعى تختلف عن خصائص العالم العقلى» (٢٢) .

ويبين عالم الطبيعة ادوين فاست كيف ان النظر فى المسادة التى منشأ الكون نظرة علمية تحليلية يؤدى بنا فى النهاية الى الايمان بوجه الله قائلا :

«وعندما تحاول العلوم ان تفسر لنا منشأ الكون تجدها تبين لنا ضوء ما لدينا من المعلومات عن الطبيعة النووية كيف تتفاعل الجزيئات الاساسية لكى تكون لنا جميع العناصر المعروفة فجميع العناصر

(٢٢) انظر موجز الفلسفة من ٢٥٨ ، ٢٦١ - ٢٦٢ .

يتألف منها هذا الكون تبدأ ببروتونات لها خواص معينة وقوة جانبية تجعلها تنضم بعضها الى بعض» .

«لما كيف نشأت هذه البروتونات ذاتها ، ولماذا كان لها هذه الصفات بالذات ، فان ذلك ما لم تستطع أن تقدم له العلوم شرحا أو بيانا» .

«ومهما بالغنا فى تحليل الاشياء ورددها الى اصولها الاولى فلا بد ان نصل فى نهاية المطاف الى ضرورة وجود قوانين طبيعية تخضع لها ذرات هذا الكون ، ويعد ذلك فى ذاته دليلا على وجود اله قادر مدبر هو الذى قدر لكل ظاهرة من ظواهر هذا الكون أن تسير فى طريقها المرسوم (٣٣) » .
وقد خلق الله الالكترونات والنيوترونات وجعل لها خواصها المعينة ، فوسع لها بذلك سلوكها وأتدارها» (٢٤) .

الكون اذن لا حقيقة له الا من حيث ما أثبت الله له من الوجود بتجميع عناصره على النحو الذى وضحه لنا العلم الحديث ، وهى عناصر تبدأ ببروتونات لها خواص معينة وقوة جانبية تجعلها ينضم بعضها الى البعض الآخر . ومهما بدت موجودات هذا الكون ثابتة صلبة فى ادراكنا نحن ، فانها فى حقيقتها ليست سوى ذرات تعود بدورها فتنحل الى اشعاعات فلنيس ثمة حقيقة الا موجد الكون وما عداه من الكائنات هو شئ بهوهم عارض كما يقول بعض صوفية الاسلام .

والله اذن هو العلة المسكة بالعالم ، والحافظة عليه وجوده ولو لم يكن ذلك لتلاشى ، وهذا هو معنى قوله تعالى : «إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا» (سورة فاطر ، آية ٥١) .

وقد أشار بعض مفكرى الاسلام الى معنى كون الله حافظا للعالم أو خالقا له باستمرار ، فى شئ من التفصيل :

(٣٣) هذا هو ما تشير اليه الآية الكريمة : «وخلق كل شئ فقيضه تقديرًا» «سورة الفرقان ، آية ٢» .
(٢٤) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ٦٦ .

يقول ابن حزم الاندلسي ما نصه : «والله تعالى خالق لكل مخلوق في كل وقت .. قال عز وجل : «ثم انشأنا خلقا آخر» (سورة المؤمنون آية ١٤) ، وقال تعالى «خلقنا من بعد خلق» (سورة الزمر ، آية ٦) ، فصح ان في كل حين يحيل الله تعالى احوال مخلوقاته ، فهو خلق جديد ، والله تعالى يخلق في كل حين جميع العالم خلقا مستأنفا دون ان يفنيه» . (٣٥) .

ويقول الكندي ان «الله هو المبدع المسك كل ما ابدع ، فلا يخلق شيء من امساكه وقوته الا باده واندثر» (٣٦) .

وكنك يذهب ابن عطاء الله السكندري الى القول بان الله هو العلة التي تمد الموجودات بعد وجودها بالوجود ، وهذا هو ما يسميه بالامداد على نحو ما يتبين من قوله في «الحكم» : «تعمتان ما خرج موجود عنهما ، ولا بد لكل مكون منهما : نعمة اليجاد ونعمة الامداد» (٣٧)

وهو يقول ايضا : «أمد (الله) كل موجود بوجود عطائه ، وحفظ وجوده (أي وجود الله) وجود العالم بامداد بقاءه» (٣٨) .
وجدير بالذكر ان ما يذهب اليه مفكرو الاسلام الذين ذكرنا في هذا الصدد متفق مع ما يذهب اليه بعض الفلاسفة المحدثين في أوروبا ، من القول بالخلق المستمر . (Création Continué) مثل ديكرت

-
- (٣٥) الفصل ، ج ٥ ، ص ٥٥ .
(٣٦) رسائل الكندي ، تحقيق الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة ، الجزء الاول ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ١٦٢ .
(٣٧) شرح الرندي على الحكم ، ج ١ ، ص ٩١ .
(٣٨) التنوير في أسقاط التدبير ، القاهرة ١٣٤٥ هـ ، ص ٥٢ .
(39) Descartes : Discours de la methode. oeuvres de Descartes, ed, Libraire Joseph Gibert P. 46 Les Principes de la Philosophie pp. 192—193.

«٣٩» ومالبرانشن «٤٠» .

ونعود مرة أخرى الى خلق الله للأشياء فنقول:

ان الله خلق كل شيء في هذا الكون بقدر ، اي بتقدير كمي وزماني وفق ماهية سابقة . وان شئت قلت : حدده واعطاه اوصافه وجعل له رتبة وجودية معينة ، يقول ابن حزم : «ومعنى القدر في اللغة العربية الترتيب والحد الذي ينتهي اليه الشيء ، تقول : قدرت البناء تقديرا اذا رتبته وحددته» .

«قال تعالى : «وقدر فيها اقواتها (سورة فصلت ، آية ١) ، بمعنى رتب اقواتها وحددها . وقال تعالى : «لا تاكل شيء خلقناه بقدر» (سورة القمر ، آية ٤٩) يريد تعالى ، برتبة وحد . فمعنى قضى وقدر : حكم ورتب ، ومعنى القضاء والقدر : حكم الله تعالى في شيء بحمده وذمه ، وبكونه وترتيبه على صفة كذا ، والى وقت كذا» «١١» .

والآيات التي تشير الى تقدير المخلوقات تقديرا كميا خاضعا للقياس او الحساب كثيرة في القرآن ، وحسبنا ان نشير هنا الى بعضها : «وخلق كل شيء فقدره تقديرا» ، (سورة الفرقان ، آية ٢) .

«والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم» (٤٢) .

«فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم» (سورة الانعام ، آية ٩٦) .

(40) Malbranche : Entretien Métaphysiques, VII, 7ed. Fontana 1, 150.

(٤١) الفصل ، ج ٣ ، ص ٥٢ .

(٤٢) سورة يس ، آية ٣٨ — ٣٩ . والمقصود بالعرجون القديم قرع النخل اليابس ، أي أن القمر لا حياة فيه ، وهذا هو ما تأكد بعد الهبوط عليه .

«الم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرناه فنعم القادرون» (سورة المرسلات ، آية ٢٠ — ٢٣) .

«سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى» (سورة الأعلى ، آية ١ — ٣)

«والسماء وضعها ورفع الميزان» (سورة الرحمن ، آية ٧)

« والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شئ موزون» (سورة الحجر ، آية ١٩) .

ومن الآيات التى تشير أيضا إلى تقدير المخلوقات تقديرًا زمنيًا قوله تعالى :

«إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر . (سورة يونس ، آية ٣) .

«هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون» (سورة يونس ، آية ٥) .

«وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون» (سورة الحج ، آية ٤٧) .
«يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون» (سورة السجدة ، آية ٥) .

«تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» (سورة المعارج ، آية ٤) .

وثمة ملاحظة هامة هنا ، وهى ان اختلاف التقدير فى الايام على النحو الذى تشير إليه بعض آيات القرآن . يفهم اذا علمنا ان الزمان هو امر نسبى ، وهو كما نعلم يقدر بحركة الافلاك فى مجموعتنا الشمسية ، اما خارج نطاق هذه المجموعة فليس ثمة زمان بالمعنى الذى نفهمه نحن على هذه الأرض .

هذا عن خلق الله للموجودات بمقدار ، أى تحديدها من ناحية الكم وفى الزمان .

أما عن ماهية كل موجود أو طبيعته الخاصة به ؛ فقد أشار القرآن إليها في قوله تعالى :

«قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى» (سورة طه ، آية ٥٠) .
وفي قوله تعالى «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم» (سورة التين ، آية ٤) .

ويتحدث ابن حزم عن أن الله قد جعل لكل موجود طبيعة معينة قائلا :
«وكل هذه الطبائع (التي للموجودات) والعادات مخلوقة . خلقها الله عز وجل . فترتب الطبيعة على أنها لا تستحيل أبدا ولا يمكن تبديلها عند كل ذى عقل ، كطبيعة الإنسان بأن يكون مـكـنـا له التصرف في العلوم والصناعات ان لم تعترضه آفة ، وطبيعة الحمير والبغال بأنه غير ممكن منها ذلك ، وكطبيعة البر «أى القمح» ان لا ينبت شعيرا ولا جوزا ، وهكذا كل ما في العالم» (٤٣) .

وهكذا يمكن القول بحسب الاسلام ان الله قد خلق كل مخلوق وفق ماهية سابقة له . وهذا مخالف لما يذهب اليه اصحاب الفلسفة الوجودية في العصر الحاضر من القول بأن الوجود سابق على الماهية .

وينبه القرآن الكريم بعد هذا كله الى ان الكون كله يسوده نظام محكم لا تفاوت فيه ولا نقص . يقول تعالى : «الذى خلق سبع سماوات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير» (٤٤) .
والحكمة تقتضى أن الموجودات فى الكون انما توجد وفق قوانين أو على حد تعبير القرآن لسنن لا تتبدل .

وليس ادل على انتظام امر الكون من أنه خاضع لقوانين ثابتة ؛ يقول تعالى : «أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها

(٤٦) الفصل ، ج ٥ ، ص ١٦ .

(٤٤) سورة الملك ، آية ٣ — ٤ . والفطور هى الشقوق ، والمتصوف .
أنك لا ترى اختلافا .

من فروج» (٤٥) .

ولابد لنا من الوقوف عند هذه النقطة لفصل الكلام فيها ، ليتبين للقارئ أن القرآن حين يوجه العقول الى اكتشاف سنن الكائنات إنما يدعو دعوة صريحة الى العلم بالمعنى الذى يفهم منه فى عصرنا .

فالقرآن يذكر فى آيات كثيرة ان الله قد خلق المخلوقات على اختلافها بالحق ، وهذا يعنى انها لم تخلق باطلاً او عبثاً او على أى نحو اتفق يقول تعالى :

«اولم يتفكروا فى انفسهم ما خلق الله السماوات والأرض إلا بالحق وأجل مسمى» (سورة الروم ، آية ٨) .

«وما خلقنا السماوات الأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناها إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون» (سورة الدخان ، آية ٣٨ - ٣٩) .

«خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فلحسن صوركم واليه المصير» (سورة التغابن ، آية ٣) .

ومعنى كلمة «الحق» الواردة فى مثل هذه الآيات ، ما يوجد بمقتضى الحكمة ، كما يذكر الراغب الأصفهاني فى «مفردات غريب القرآن» (٤٦) ولذلك توصف أفعال الله كلها بأنها حق ، أى أنها تصدر عن الله بمقتضى علمه وحكمته .

معينة (٤٧) ، والإلا لم تكن حكمة ، وهذه القوانين ليست شيئاً أكثر من ربط الأسباب بمسبباتها ، وإلى هذا يشير ابن رشد ، فى عبارات تدل على

(٤٥) سورة ق ، آية ٦ . والمقصود بقوله تعالى : «بأمر من فروج» ليس فيها عيوب أو نقائص .

(٤٦) مفردات غريب القرآن ، مادة : «حق» .

(٤٧) يطلق على الموجودات فى القرآن أحياناً وصف الكلمات ، وهى لا تتبدل من حيث قوانينها ، يقول ابن حزم : «لا تبدل لكلماته» ، فصح أنه لا تبدل لما رتبته الله مما أجرى عليه خلافة» ، الفصل ، ج ١ ، ص ٨٥ .
جوانظر سورة الانعام ، آية ١١٥ ، وسورة الكهف ، آية ٢٧ .

علمية تفكيره ، قائلا : «الحكمة ليست شيئا أكثر من معرفة اسباب
الشيء ، واذا لم تكن للشيء اسباب ضرورية تقتضى وجوده على الصفة التى
هو بها ذلك النوع موجود ، فليس ههنا معرفة يختص بها الحكيم الخالق
دون غيره ، كما انه لو لم تكن ههنا اسباب ضرورية فى وجود الامور
المصنوعة لم تكن هنالك صناعة أصلا ولا حكمة تنسب الى الصانع دون
من ليس بصانع .

«واى حكمة كانت تكون فى الانسان لو كانت جميع أفعاله وأعماله
يمكن ان تأتى بأى عضو اتفق ، أو بغير عضو ، حتى يكون الابصار مثلا
يتأتى بالاذن كمايتأتى بالعين ، والشم بالعين كما يتأتى بالانف» .

«وهذا كله أبطل للحكمة ، وابطال للمعنى الذى سمي به (الله)
نفسه حكما . تعالى وتقدس اسماءه عن ذلك» (٤٨) .

وعلى ذلك فان «بناء المسيباب على الاسباب هو الذى يدل على انها
(أى الموجودات) صدرت عن علم وحكمه» (٤٩) .

وبشئ يسير من التأمل يدرك الانسان انه لابد ان تكون هناك قوانين
معينة للظواهر الكونية ، هى مظهر حكمة الخالق تعالى .

فالذى ينظر الى السماء يرى النجوم والكواكب معلقة فى الفضاء
دون ان تستند الى شئ ، يقول تعالى ، «الله الذى رفع السماوات بغير
عمد ترونها» (سورة الرعد ، آية ٢) ، ومثل هذا التنبيه القرآنى من شأنه
أن يدفع الانسان الى التساؤل عن علة وجود الاجرام فى السماء على هذا
النحو ، ثم اذا بالانسان يهتدى الى قوانين الجاذبية والحركة والنسبية
وما الى ذلك ، فيعرف الاسباب الحقيقية لتلك الظاهرة .

وكذلك المتأمل فى ظاهرة تعاقب الليل والنهار يتساءل عن السر فى

(٤٨) الكشف عن مفاهيم الادلة ، القاهرة ١٣٢٨ هـ ، ص ٤١ .

(٤٩) نفس المرجع ، ص ٨٨ .

تعاقيبها ، فيجيبه القرآن بما يفيد كروية الارض ودورانها المستمر ، فيقول تعالى : «يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل» (سورة الزمر ، آية ٥) .

وليس هذا فهما معاصرا لهذه الآية ، وإنما هو منهم قديم توصل اليه علماء المسلمين قديما بفضل القرآن ، وفي ذلك يقول ابن حزم : «ان أحدا من أئمة المسلمين المستحقين لاسم الإمامة بالعلم رضى الله عنهم لم ينكروا تكوير الارض ، ولا يحفظ لاحد منهم في دفعه كلمة ، بل البراهين من القرآن والصفة قد جاءت بتكويرها . قال الله عز وجل : «يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل» . وهذا أوضح بيان في تكوير بعضها على بعض ، مأخوذ من كور العمامة وهو ادارتها» (٥٠) .

ومن الظواهر الطبيعية التي يجل القرآن الكريم الإشارة الى أسبابها بما لا يختلف عما هو معروف من العلم الحديث ، السحاب والمطر والبرق يقول تعالى :

«الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عبادة إذا هم يستبشرون» (٥١) .

«الم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار» (سورة النور ، آية ٤٣) .

ان القرآن بمثل هاتين الآيتين يدفعنا الى عملية التفكير المتمثلة في ربط الظواهر الطبيعية بعللها الحقيقية لا الوهمية ، فالسحاب والمطر والبرق ترتبط في حدوثها بعوامل معينة كحرارة الشمس ومياه البحر وبخار الماء المتصاعد بفعل الحرارة والرياح واحتكاك السحب حين تتجمع .

(٥٠) الفصل ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

(٥١) سورة الروم ، آية ٤٨ والودق هو المطر .

هذه أمثلة قليلة مما يزخر به القرآن من آيات تحت عقل المفكر على اكتشاف قوانين الطبيعة التى هى مظهر نظام الكون ، كما أنها فى نفس الوقت دلالات على أن هذا الكون لم يخلق باطلا أو عبثا ، وأن له غاية .

وصدق الله تعالى اذ يقول : «وما خلقنا السماوات والارض باطلا . ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار» (سورة ص ، آية ٢٧) . وانظر الى العلم بالكون وقوانينه حينما ينتهى الى الايمان بالله فى صورة رائعة يقدمها لنا سبيل هابان اذ يقول .

«فإذا رمعنا أعيننا نحو السماء فلابد أن يستولى علينا العجب أكثر ، من كثرة ما نشاهده فيها من النجوم والكواكب السابحة فيها ، والتي تتبع نظاما دقيقا لا تحيد عنه قيد أنملة ، مهما مرت بها الليالى ، وتعاقت عليها الفصول والاعوام والقرون . لنها تدور فى أفلاكها بنظام يمكننا من التنبؤ بما يحدث من الكسوف والخسوف قبل وقوعه بقرون عديدة .

«فهل يظن أحد بعد ذلك أن هذه الكواكب والنجوم قد لا تكون أكثر من تجمعات عشوائية من المادة تتخبط على غير هدى فى الفضاء» وإذا لم يكن لها نظام ثابت ، ولم تكن تتبع قوانين معينة ، فهل كان من الممكن أن يثق الإنسان بها ، ويهتدى بهديها فى خضم البحار السبعة ، وفى الطرق الجوية التى تتبعها الطائرات (٥٧) .

«الحق انه من قطرة الماء التى رايناها تحت المجهر الى تلك النجوم التى شاهدها خلال المنظار المكبر ، لا يسع الإنسان الا أن يجد ذلك النظام الرائع وتلك الدقة البالغة والقوانين التى تعبر عن تماثل السلوك وتجانسه .

«ولولا ثقة الإنسان فى أن هنالك قوانين يمكن كشفها وتحديدها لما

(٥٧) هذا هو معنى قوله تعالى : «وعلامات وبالنجم هم يهتدون» : سورة النحل ، آية ١٦ .

أضاع الناس أعمارهم بحثاً عنها فيدون هذا الامتقاد وتلك الثقة في نظام الكون يصير البحث عبثاً ليس وراءه طائل .

«ولو أنه كلما أجريت تجربة أعطت نتيجة مخالفة لسابقتها بسبب توقفها على المصادفة أو عدم وجود قوانين مهيمنة فأى تقدم كان من الممكن أن يحققه الإنسان؟ ..

«لابد أن يكون وراء كل ذلك النظام خالق أعلى . فليس مما يقبله العقل أن يكون هناك نظام أو قوانين دون أن يكون وراءها عقل أعلى ومنظم مبسودع .

«وكلما وصل الإنسان إلى قانون جديد فإن هذا القانون ينادى قائلاً : ان الله هو خالقى وليس الإنسان الا مكتشفاً!» (٥٢) .
خلاصة القول فيما سبق ان معالم صورة الكون فى الاسلام تتحدد على النحو التالى : —

الكون كله حادث مخلوق ، وكل ما فيه من الكائنات له بداية ونهاية والله تعالى هو الذى خلقه بما فيه من عوالم متعددة ومخلوقات تعلم بعضها ولا تعلم عن البعض الآخر شيئاً ، وأن الكون لعظم اتساعه غير محصور فى مداركنا ، ولذلك لا يمكن القطع بأنه يتناهى أو لا يتناهى . وكذلك فإن الله لم يخلق عوالم الكون دفعة واحدة وإنما خلقها على سبيل التدرج أو التطور ، فإن الموجودات جميعاً فى الكون من أصل واحد . والله هو المسك للكون أو الحافظ عليه وجوده ، ولولا ذلك لتلاشى ، وأن خلقه للموجودات مستمر . وحين خلق الله مخلوقاته فإنه خلقها بقدر ، أى بتقدير كمى وزمانى وفق ماهيات سابقة . والكون كله يسوده نظام دقيق محكم اذ ان جميع الموجودات فيه خاضعة لقوانين مطردة ثابتة لا تتبدل ، وهذا هو معنى ايجادها بالحق ، أى بمقتضى حكمه معينة .

(٥٢) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ١٤٤ .

علاقة الإنسان بالكون

واذ قد تبينت صورة الكون على هذا النحو تنتقل الى البحث عن
الانسان من حيث علاقته بالكون : كيف وجد فيه ، وما هي طبيعته المميزة
له ، وما هي رسالته في هذه الحياة التي يحياها على الارض ، وما معنى
تسخير الكون له ، او ملامته لوجوده ، وهل لحياته غاية ابعد من تلك
التي تتحقق على الارض ؟ كل اولئك تساؤلات نحاول أن نجيب عليها
فيها يلي :

الانسان بحسب ما ورد في القرآن الكريم هو محور هذا الكون ،
وعلى قمة مخلوقاته وموضع التكريم والعناية الالهية فيه ، خلقه الله في
احسن تقويم وجعله في اكمل صورة . يقول تعالى : «لقد خلقنا الانسان
في احسن تقويم» (سورة التين ، آية ٤) ، ويقول تعالى : «وصوركم
فاحسن صوركم» (سورة فاطر ، آية ٦٤) .

اما كيف تم خلق الانسان ، فهذا مما لا نستطيع الوقوف على
حقيقته ، صحيح ان في القرآن الكريم ما يشير الى قصة خلق آدم ، وكيف
علمه الله الاسماء كلها ، وامر الملائكة بالسجود له فجدوا الا ابليس ،
وكيف اخطأ هو وزوجه فأمرهما الله بالهبوط الى الارض ، (سورة البقرة ،
آية ٣٠) وما بعدها ، ولكن هذه كلها اشارات الى امور غيبية لا نعرف كنهها
وهي ايضا مما يحتمل تاويلات شتى .

وقد اساب ابن حزم حيث يقول : «فلسنا نعلم ولا احد من الناس
كيفية ذلك (اي بدء الخلق) ، وهذا نص قوله تعالى : «ما اشهدتهم خلق
السموات والارض ولا خلق انفسهم» (سورة الكهف ، آية ٥١) . .
اما ما كان بعد ابتداء الخلق فمعروف الكيفيات ، قال تعالى : «وتمت
كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته» (سورة الانعام ، آية ١١٥) ،
غصص انه لا تبديل لما رتب الله مما أجرى عليه خلأقه» (٥٤) .

ولا يعيب الإنسان الفكر أبداً أن يقر بعجز عقله الآن عن ادراك حقيقة ما ، فما أكثر ما لا نعرفه بيقين ، وإنما الذى يعيبه حقا هو أن يسارع فينكها مجرد الإنكار ، أو يخوض في الكلام عنها متولوا بما لا يعرف .

وإذا كان العلماء تحديدون الآن بدء ظهور الإنسان على هذه الأرض بـ ١٠ ملايين سنة ، استناداً إلى أقدم الحفريات ، فهذا يدل على أن الإنسان قد جاء خاتمة لسلسلة من المخلوقات أدنى منه سبقته على هذه الأرض ، بل أن الإنسان نفسه تطور على هذه الأرض ماراً بمراحل متتالية حتى إلى ما بلغ إليه من كمال ، يقول تعالى :

«هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا»
(سورة الإنسان ، آية ١) .

«ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا . ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أثبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا» (سورة نوح ، آية ١٢ - ١٨) .

ولكن التطور الذى تشير إليه هذه الآيات في القرآن اشارات مجملة أنها تتعلق بالإنسان من حيث هو كائن مادي ، لا من حيث هو كائن روجي ، فالإنسان بالاعتبار الاول نشأ على هذه الأرض وتطور ، أما بالاعتبار الثانى فقد كان له وجود روجي سابق فى عالم آخر - وهو ما تشير إليه قصة خلق آدم في القرآن - وأن كنا لا ندري كيفيات هذا الوجود .

يقول تعالى : «ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا» (سورة الاسراء ، آية ٨٥) .

أما القول بأن الإنسان مادة فقط ، فهو قول ينقضه ما يعرفه الإنسان بفطرته ، فهو كائن يعي ذاته ، والمادة لا تعي ذاتها .

وأكثر من ذلك هو الكائن الوحيد من بين مسائر الكائنات الأخرى
الحية القادرة على استخلاص أشد أنواع المعرفة تجزئتها. بعمليات
ذهنية في غاية من التعقيد ، ولا حدود لاطلاقاته في هذا السيل .

والإنسان حين يعبد الى تأمل ذاته ، أو ما يسميه علماء النفس
بالاستبطان (Introspection) لا يدرك مادة ، وإنما يدرك فكرا .

وبتعبير أكثر دقة يدرك حالات متتابعة من التفكير ، هي ما يطلق على
مجموعة الذات المفكرة ، أو بتعبير علماء النفس الاتنا (Ego) ، على اعتبار
أن وحدة الظواهر النفسية تستلزم أصلا أن تصدر عنه .

ان استمرار حياة الإنسان الوجدانية في تيار واحد لا انقسام فيه
ولا انفصام ، أو بعبارة أخرى شعوره من أول عمره الى آخره بحركة
فكره المتصلة في الزمان ، يثبت له أن ذاته المفكرة متميزة عن البدن تماما ،
إن كانت هي علة تدبيره وحركته .

ولما كان الإنسان يدرك هذا كله من نفسه مباشرة ، فانه غير محتاج
بقي اثبات صدقه الى دليل من خارج ، فالحدس دائما أقوى من البرهان .

والإنسان يدرك من نفسه أيضا بطريق مباشر انه حين يسلك فائبا
يسلك بمقتضى حوافز معينة وليس عشوائيا ، ولا نستطيع ان نصف كل
هذه الدوافع بأنها مادية . ولهذا فان مظاهر سلوك الإنسان من أشد
الأمور تعقيدا اذ لا يمكن تفسيرها آليا . ولم ينجح علماء النفس بعد في
اخضاع جميع الظواهر النفسية في الإنسان الى القياس الكمي . وعلى
سبيل المثال فان مجال العواطف الانسانية لا يزال الى الآن من أغضى
المحالات في علم النفس .

كل هذا يدلنا على الفارق بين الإنسان وبين غيره من الكائنات الحية
وغير الحية ، وهو الفارق الذي يكمن في أن الإنسان حين يصدر في سلوكه
فائبا يصبر عن ارادة وإعية وفكر استدلالي ، والفكر غير خاضع لقوانين
المادة ، وهي لا تفسر لنا شيئا من تصوراته الجيدة وعملياته المعقدة .

ونحن اذا قلنا ان الانسان كائن ذو طبيعتين ، احدهما تتعلق بعالم
المكان والزمان ، والاخرى تتعلق بعالم آخر غير مادي ، فان قولنا هذا
ليس يعبر عن فكرة ميتافيزيقية بعيدة عن واقع الانسان كما يحسه هو
نفسه مباشرة . فالانسان هو الكائن الوحيد الذى ينزع بشعوره وبعقله
نزوعا غريبا الى ما وراء المحسوس ، وهو نزوع يكاد ان يكون فطريا
فيه وملازما لطبيعته ، فكيف يمكن اغفال دلالات ذلك ؟

ونعود الآن الى ما كنا بصدده ، فنقول ، ان الانسان نشأ وتطور على
هذه الارض ، ولكن بعد وجود سباق لا ندرى كنهه فى عالم آخر غير هذا
العالم المحسوس .

ومن الايات القرآنية التى لها دلالة على ما ذكرنا قول الله تعالى :
«واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على
انفسهم السبت برأيكم قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن
هذا غافلين» (سورة الاعراف ، آية ١٧٢) .

ويذكر مخر الدين الرازى عند تفسيره لهذه الآية ان صوفية الاسلام
ياخذون فى تفسيرها برأى مؤداه ان الارواح البشرية موجودة قبل الابدان ،
وان الاقرار بوجود الاله من لوازم قواتها وحقائقها (٥٥) .

والواقع ان صوفية الاسلام لم يكونوا هم وحدهم الذين فهموا تلك
الآية الكريمة على هذا النحو ، ولكن يشاركونهم فى هذا الفهم ابن حزم على
الرغم من انه من ائمة الظاهرية ، فهو يقول :

«ان الله تعالى قد نص كما ذكرنا انه اخذ من بنى آدم من ظهورهم
ذرياتهم ، وهذا نص جلى على انه عز وجل خلق انفسنا كلها من عهد آدم
عليه السلام ، لان الاجساد حينئذ يلا شك كانت ترابا وماء . وايضا فان

(٥٥) مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير ، القاهرة ١٣٢٤ هـ ،
ج ٥ ، ص ٤١٢ وما بعدها .

المخاطب انما هو النفس لا الجسد . فصح يقينا ان نفوس كل من يكون من بني آدم الى يوم القيامة كانت موجودة مخلوقة حين خلق آدم بلا شك . ولم يقل الله عز وجل انه افنانا بعد ذلك . ونصر تعالى على انه خالق الارض والماء حينئذ بقوله تعالى : «وجعلنا من الماء كل شيء حي» «سورة الانبياء آية ٣٠» ، وقوله تعالى : «خلق السماوات والارض في ستة ايام ثم استوى على العرش» «سورة الاعراف ، آية ٥٤» . واشهر من وجلد انه خلقنا من طين ، والطين هو التراب والماء ، وانما خلق تعالى من ثلاثة اجسامنا ، تصح ان عنصر اجسامنا مخلوق منفذ اول خلقه تعالى السماوات ، وان ارواحنا ، وهي انفسنا ، مخلوقة منذ اخذ الله تعالى عليها العهد» (٥٦) .

وفي رأينا انه لا يزال وراء النصوص الدينية المتعلقة بخلق الانسان من الاسرار ما لا نعلم

كما ان علم الانسان بنفسه وبإمكاناته الهائلة لا يزال محدودا الى الان ، وربما استطاع الانسان ان يعرف عن الكون المادي اكثر مما استطاع ان يعرفه عن اسرار نفسه .

مهما يكن من شيء ، فان الله تعالى خلق الانسان ، رشاء ان تكون هذه الارض مستقرا له الى وقت معلوم ، وفي ذلك يقول تعالى : «ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين» «سورة البقرة ، آية ٣٦» .

والانسان في هذه الدنيا صاحب رسالة فقد استخلفه الله على الارض ليعمرها ويستخرج خيراتها لا ليزهد فيها وينصرف عنها ، وهذا هو معنى الاستخلاف في قوله تعالى : «انى جاعل في الارض خليفة» «سورة الانعام ، آية ١٦٥» .

على أن هذا الاستخلاف لا يخلو من الامتحان ، فقد أراد الله لهذا الإنسان أن تعاني نفسه من الصراع بين نوازع الخير والشر فيها هو مستخلف فيه ، وهو صراع تكتمل من خلاله شخصيته ، وترتقى من الناحيتين الروحية والمادية ، فيتهيأ بهذا الحياة أخرى غير هذه الحياة ، والقانون الذي يحكم هذا كله هو : الجزاء على قدر العمل ، يقول تعالى :

«وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات لسلككم فيما آتاكم» «سورة الأنعام ، آية ١٦٥» .

«هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا» «سورة فاطر ، آية ٣٩» .

«إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا» «سورة الكهف ، آية ٧» .

«ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون» «سورة يس ، آية ٥٤» .
«يومئذ يصدر الناس لئسابا ليروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» «سورة الزلزلة ، آية ٦ - ٨» .

وكان من مظاهر رحمة الله أن جعل في الإنسان عقلا ليستطيع به ادراك أسرار الكون ومعرفة خالقه ، وترتيب أمور معاشته في هذه الدنيا على أفضل وجه . وهذا العقل هو الأمانة التي يذكر القرآن أن الإنسان قد حملها . «انظر : سورة الأحزاب ، آية ٧٢» . وبواسطة العقل أيضا يستطيع الإنسان أن يميز بين الخير والشر ، والتقوى والفجور ، كما تيقنهم من قوله تعالى : «وأنفس وما سواها .. فآلهما فجورها وتقواها» «سورة الشمس ، آية ٧ - ٨» .

ومن مظاهر رحمة الله بالإنسان أيضا إرسال الرسل بالبيئات ، لعلهم تغالى بأن شهوات الإنسان وأهواءه قد تنحرف بعقله إلى مسالك الشر

وكان إن تتابعنا الرسالات منسابة المجتمعات الإنسانية في تطورها
الصاعد آخذة بيد البشرية إلى أسباب ارتقائها الروحي والمادي حتى كانت
الرسالة المحمدية فختمت بها الرسالات ، وتحققت بها الرحمة كاملة ،
يقول تعالى : «وما أرسلناك إلا رحمة للمالين» . سورة الانبياء ، آية
١٠٧ .

جاء الاسلام لنوع الانسان بالتوحيد الخالص الذي لا تشويه شائبة ،
وتم بلاغ السماء للناس جميعا ، وتكثرت أهمية الانسان على هذه الارض
وكرامته وعزته ، وتحددت صلته بربه ، وبإشباعه من الناس ، على أسس
واضحة ، وتركت للناس مصالحهم المرسله يصلحونها كلما جدت وقائع
جديدة في حياتهم وانتهت مرحلة الاعتماد على الخوارق في اثبات
الرسالات بوصول البشرية إلى مرحلة الاعتماد على العقل في معرفة
الكون وخالقه .

لهذا كان العقل دعامة أساسية من دعائم الاسلام ، واستخدام
العلم من اقوى الوسائل إلى تحقيق رسالة الانسان على هذه الارض ، وهي
أن يعمرها ويستقل خيراتها إلى أبعد الحدود .

ونظرة إلى تاريخ حضارة الانسان منذ وجد على هذه الارض إلى
الآن كقيلة ببيان الحكمة الالهية من وجود الانسان ، فالتطور الهائل في
امكانياته يدلنا على أن الله قد أوجد فيه من الاستعدادات ما لم يوجد في
مخلوق آخر ، ولا زال مستقبل الانسان يحمل من الامكانيات في تسخير
الطبيعة ما لا نعلم وما قد لا نتصور ، ومن ذا الذي كان فيما مضى يتصور
وصول الانسان إلى القمر ؟

ان الانسان في الحقيقة هو قمة الموجودات في هذا العالم ، وهو
بمثابة مرآة يتجلى فيها الكون كله ، وهو الكائن الوحيد على هذه الارض
القبادر على تعقل ما حوله واعطائه معنى وهندفا ، وما أعبق المعنى في
قوله تعالى : «وغي أنفسكم افلا تبصرون» «سورة الذاريات ، آية ٢٠» .

فليس غريبا أن يكرم الله الإنسان لما فيه من هذه المصانئ كلها ،
وصدق الله إذ يقول : «واقعد كرمنا بنى آدم» «سورة الاسراء - آية
٧٠» .

وليس غريبا كذلك أن يكون الإنسان مريضاً الشفاة الالهية ليتمكن من
استدراك الوجود على هذه الأرض وإدقيق رسالته .

والحقيقة أن من أقوى الدلائل على أن الإنسان محور هذا الكون هو
تلك الملاحة التي يتركها بيسير تأمل بيته وبين المالم الذي يعيش فيه :
مالمخلاف الجوى المحيط بالأرض يحميها من الشهب والنيازك ،
والهواء المحيط بالإنسان ملائم لتنفسه وظائف حياته ، ولا كذلك الطبقات
العليا من الجو (٥٧) . ووجود الجبال يحفظ توازن الأرض ، وتعاقب الليل والنهار
فيه ملاحة لنوم الإنسان ويقظته ، ونزول المطر من السماء هو بمقدار
ما ينبت به النبات وينتفع به الإنسان والحيوان ، وعدم اختلاط مياه البحار
بمياه الأنهار العذبة هو من أجل بقاء النبات والحيوان والإنسان ، ووجود
الأشجار فيه من الفوائد للإنسان ما لا يحصى ، وكذلك المصانئ التي يظن
الأرض . وهكذا فإن كل ما نشاهده من هذا المالم المرئي أننا نوحى إلينا
بأنه لحياة ملائم الإنسان من كل الوجوه ، يقول تعالى :

«أنتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وانغشى
ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بسد ذلك فحاها . أخرج منها ماءها
ومرعها . والجبال أرساها . متاعا لكم ولأنعامكم» «سورة النازعات ،
آية ٢٧ - ٣٣» .

(٥٧) أشار القرآن الى عدم ملاحة الطبقات العليا لتنفس الإنسان
في قوله تعالى :

«ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في
السماء» «سورة الانعام ، آية ١٢٥» ، وهو أمر لم يكتشفه العلم إلا
حديثا .

«أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً الغباد واحيينا بلدة ميتا كذلك الخروج» «سورة ق ، آية ٦ — ١١» .

«الم نجعل الأرض مهاداً . والجبال أوتاداً . وخلقناكم أزواجاً . وجعلنا نومكم سباتاً . وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً . وبنينا فوقكم سبعة شدادا . وجعلنا سراجاً وهاجاً . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً لنخرج به حبا ونباتاً . وجنات ألفافاً» «سورة النبا ، آية ٧ — ١٦» .

«وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغيى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات وكنات من أعناب وزرع ونخل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل . ن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون» «سورة الرعد ، آية ٣ — ٤» .

«وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً» «سورة الفرقان ، آية ٥٣» .

«وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون فانثنا لكم به جنات من نخل وأعناب لكم فيها مواكه كثيرة ومنها تآكلون» «سورة المؤمنون ، آية ١٨ — ١٩» .

«أفرايتم المساء الذى تشربون . أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . ولو شاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون . أفرايتم النار التى تورون . أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تنفكة ومتاعاً للمقوين . فمسبح باسم ربك العظيم» «سورة الواقعة ، آية ٦٨ — ٧٤» .

ان هذه الموافقة بين العالم والانسان ، والتي تشير اليها هذه الآيات القرآنية ، وكثير غيرها في القرآن الكريم ، تظهرنا أيضا على أن العالم لم ينشأ اتفاقا كما يقول الماديون . وقد عبر ابن رشد عن هذا المعنى الأخير قائلا :

«كما ان الانسان اذا نظر الى شيء محسوس فراه قد وضع بشكل ما ، وقدر ما ، ووضع ما ، موافق في جميع ذلك للمنفعة الموجودة في ذلك الشيء المحسوس ، والغاية المطلوبة منه ، حتى يعترف انه لو وجد بغير ذلك الشكل ، أو بغير ذلك الوضع ، أو بغير ذلك القدر ، لم توجد فيه تلك المنفعة ، وانه ليس يمكن أن تكون موافقة اجتماع تلك الأشياء لوجود تلك المنفعة بالاتفاق كذلك الامر في العالم كله ، فانه اذا نظر الانسان الى ما فيه من الشمس والقمر وسائر الكواكب التي هي سبب الازمنة الاربعة وسبب الليل والنهار ، وسبب الامطار والمياه والرياح ، وسبب عمارة اجزاء الارض ، ووجود الناس وسائر الكائنات من الحيوانات والنبات ، وكون الارض موافقة لسكنى الناس فيها ، وسائر الحيوانات البرية ، وكذلك الماء موافقا للحيوانات المائية ، والهواء للحيوانات الطائرة ، وانه لو اختلف شيء من هذه الخلقة والبنية لاختل وجود المخلوقات التي ههنا ، علم على القطع انه ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة التي في جميع اجزاء العالم للانسان والحيوان والنبات بالاتفاق ، بل ذلك عن قصد قصده ، ومريد اراده ، وهو الله عز وجل ، وعلم على القطع أن العالم بمصنوع» (٥٨)

ان نظرة ابن رشد الى ما في الكون من نظام يدل على الغائية على هذا النحو يدلك على علمية تفكيره . ولو عاش ابن رشد في عصرنا لعلم من بسرار الموجودات في الكون ، ومن موافقتها لوجود الانسان ما لم يكن ليخطر له على بال ، ولتقوى دليله في العناية بالكثير مما هو عليه .

(٥٨) الكشف عن مناهج الادلة ، ص ٨١ - ٨٢ .

ومن الظريف أن يعبر أحد العلماء المعاصرين ، هو ديل سوازتن-درويد ، عن نفس دليل ابن رشد الذي مر بك ، ولكن بلغة عصرنا ، فيقول :

«كيف تفسر ذلك النظام والابداع الذي ينسود هذا التكون ؟ هناك حلان ، فاما أن يكون هذا النظام قد حدث بمحض المصادفة ، وهو ما لا يتفق مع المنطق أو الخبرة وما لا يتفق في نفس الوقت مع قوانين الديناميكا الجبرائية التي يأخذ بها الحديثون من رجال العلوم

«واما أن يكون هذا النظام قد وضع بعد تفكير وتدبير ، وهو الرأي الذي يقبله العقل والمنطق

«وهكذا ترى العلاقة بين النيات والتربة تشير الى حكمة الخالق. وتدل على بديع تدبيره

«وانا واثق أن الاخذ بهذا الرأي سوف يثير انتقاد المعارضين لهذا الاتجاه ممن لا يؤمنون بوجود الحكمة أو الغرض وراء ظواهر الطبيعة وقوانينها . ومعظم هؤلاء ممن يأخذون بالتفسيرات الميكانيكية ، ويظنون أن النظريات التي يصلون اليها في تفسير ظواهر الكون تمثل الحقيقة بعينها .

«ولكن هنالك من المسوغات ما يدعونا الى الاعتقاد أن ما وصلنا اليه من التفسيرات والنظريات العلمية ليس الا تفسيرات مؤقتة ، وليست لها صفة الاطلاق أو الثبات .

«فاذا سلمنا بهذا الرأي تضاعف خطر المعارض في فرضية الكون أو وجود غاية منه ، كما لا شك فيه أن هنالك حكمة وتصميما وراء كل شيء ، سواء في السماء التي فوقنا أو الأرض التي من تحتنا .

«ان انكار وجود المصمم والبدع الاعظم يشبه في تجاربه مع العقل والمنطق ما يحدث عندما يبصر الانسان حقلا رائعا رائعا يروج نباتات القمح.

الصنفاء الجميلة ، ثم ينكر في نفس الوقت وجود الفلاح الذي زرعه والذي يسكن في البيت الذي يقوم بجوار الحقل!!» (٥٩) .

وهكذا تبدو الغائية في الكون وفي الإنسان في أجلى مظاهرها أمام العقل العلمى المنصف الذى عرف حدوده وتخطى عن غروره بإمكانياته .

وما أجل عبارة أينشتاين : «إن الشخص الذى يعتبر حياته وحياة غيره من المخلوقات عديمة المعنى ليس نعيسا محسب ، ولكنه غير مؤهل للحياة» (٦٠) .

وإذا كانت حياة الإنسان على الأرض قصيرة للغاية إلا أنها عظيمة الانجازات . فهل ينتهى كل هذا فجأة ويضيع كفاح الإنسان كله على هذه الأرض؟ وهل يستوى من بذل جهوده لخدمة الإنسانية وتعمير الأرض مع من أفسد فيها؟ وهل يستوى العالم والجاهل والحسن والمسيء؟

لو كان الأمر كذلك ، إذن تكون حياة الإنسان على الأرض عبثا لا معنى له ، وضياعا لاحد له!

لقد علم الله حين خلق الإنسان أنه قد يحتجب بشهواته وأهوائه من رؤية الحقيقة فيقع في وهم كرههم الدهرية حين قالوا : «ها هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر» (سورة الجاثية ، آية ٢٤) .

ومن هنا بين الله تعالى للإنسان أن ثمة وراء حياته هذه حياة أخرى سيحاسب فيها على أعماله ، أن خيرا فخير وأن شرا فشر ، لا يستوى فيها العالم والجاهل ، ولا المؤمن والفاسق ، ولا الطيب والخبيث .

(٥٩) الله يتجلى في عصر العلم ، ص ١٥٤ .

(٦٠) الله يتجلى في عصر العلم ، ص ١٥٤ .

«قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» (سورة الزمر ، آية ٩) .

«ألمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون» (سورة السجدة ، آية ١٨) .

«قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث» (سورة المائدة ، آية ١٠٠) .

وهذا هو المعدل الذى يطمئن اليه قلب الانسان ويجعل لحيناته معنى .

ان الايمان بحياة اخرى يدفع الانسان ايضا الى العمل الصالح النافع لان هذا هو الطريق المؤكد الى السعادة .

لقد كتب عالم النفس وليم جيمس مقالا عنوانه (٦١) : «هل للحياة قيمة» قال فيه ان الحياة تستحق ان نحياها اذا اعتقدنا بأن هذا العالم ليس الا جزءا من الوجود ، وأنه يوجد الى جوار عالمنا المحسوس قوى روحية خالدة ، وتوجد هذه القوى فى عالم غير مرئى .

ان اعتقادنا فى هذا العالم غير المنظور هو مصدر اعتقادنا بأن عالمنا المنظور خير للانسان . ومعنى الخيرية ملامة عالمنا لحياة خلقية ودينية ناجحة . ان الاعتقاد فى العالم غير المنظور يعطينا نجالا جديدا وقوى جديدة نستعين بها حين نفقد معركة هذه الحياة ونصاب بالعجز واليأس . اننا حينئذ نشعر بالامل والسعادة حينما نرتب فى أحضان ذلك العالم النسيح .

لقد عبّر وليم جيمس عن واقع الانسان حين جعل سعادته مرتبطة بإيمانه بوجود عالم قيبى ، وهى سعادة لا يمكن أن يعرفها حق المعرفة الا من عانى تجربة دينية حقيقية لا شكلية . ولا كذلك الانسان الملحد

(٦١) محمود زيدان : وليم جيمس ، دار المعارف بالقاهرة ، ص ١٥٦ .

فهو لا سبيل له الى تصور سعادة كهذه ، لانه اذا تفكر في مصيره يجد نفسه عاجزا بلواء الموت الذي يفسح نهاية اخيرة لوجوده ، والذي لا مفر له منه في نفس الوقت . وهذا يدفعه الى انواع من التحديات العتيقة التي يحاول أن يؤكد بها ذاته . ومن بين صور هذه التحديات السعى الى هدم ما تعارف عليه المجتمع من قيم انسانية ، واقبال لا حد له على ملذات الحياة دون ميالة بالخير ، وبطرق مشروعة وغير مشروعة . وهذا يفسر لنا لماذا يقتن الاالحاد بالانانية المفرطة والحققد والحسد والضغينة وما الى ذلك من شرور اخلاقية . وهذا امر طبيعي فما الذي يمكن أن يخشاه الملحد اذا كان يعتقد انه لا قيم تلزمه ، ولا بعث ولا حساب ، ولا ثواب ولا عقاب .

ومن اطرف ما نجده في الفكر الاسلامي ردا على الملحدن المنكرين للبعث ما يورده الامام الغزالي (١٢) من محاوراة بين الامام على رضى الله عنه واخذ الملحدن ، قائلا :

«قال على كرم الله وجهه لبعض الملحدن : ان كان ما قلته (من انه لا بعث ولا حساب) حقا ، فقد تخلصت وتخلصنا .

«وان كان ما قلناه (من وجود البعث والحساب) حقا فقد تخلصنا وهلكنا» .

ويعقب الامام الغزالي على هذا قائلا : وما قال (الامام على) هذا عن شك منه في الآخرة ، ولكنه كلم الملحد على قدر عقله ! .
ويغير الامام الغزالي عن هذه الفكرة ذاتها قائلا : «ليس في العقلاء الا من صدق باليوم الآخر واثبت ثوابا وعقابا . . فان صدق اولئك العقلاء في امر الآخرة ، وكذب هو ، فانه يبقى في عذاب ابدى . وان كذبوا هم وصدق هو فلن يفوته الا بعض شهواته الدنيا الفانية» (١٣) .

(١٢) انظر احياء علوم الدين ، ج ٣ ، ص ٣٢٦ وما بعدها .
(١٣) هذه الفكرة هي عين تلك التي عبر عنها بعد الغزالي بقرون الفيلسوف الفرنسي باسكال وتعرب عنده بفكرة البرهان ، وذلك في كتابه «الخواطر» .

ومن ثم فإن ما هو أكثر ضمانا بالنسبة للإنسان أن يعتقد بالبعث إذا
نظر إلى مضميره نظرة عقلية واعية :

ولذلك يبين القرآن لنا أن حياة الإنسان مع انكار البعث تكون عبثا
لا معنى له ، ولابد من وجود حياة أخرى وراء هذه الحياة اكمل وأبقى
يلقى فيها الإنسان الجزاء على ما قدم من أعمال ، فحياتنا هذه الدنيوية
ليست غاية في ذاتها ، وإنما هي وسيلة لغاية أبعد . يقول تعالى :

«أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون» (سورة المؤمنون
آية ١١٥) .

«ايحسب الإنسان أن يترك سدى» (سورة القيامة ، آية ٣٦) .

يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وأن الآخرة هي دار القرار»
(سورة غافر ، آية ٣٩) .

«لوما هذه الحياة إلا لهُو ولعب وإن الدار الآخرة لهُى الحيوان لو
كانوا يعلمون» (سورة العنكبوت ، آية ٦٤) .

إن الإنسان إذا لم ير لحياته معنى أو غاية وقع حتماً في التشاؤم
الشديد ، وتجلل من كل القيم ، وتخلّى عن إنسانيته أو المعنى الذى كرمه
الله من أجله ، وأصبح لا يعقل شيئاً مما حوله ، ولا يبدو له أى أمل من أمول
حياته فيقول (٦٤) :

(٦٤) هذا ما تشير إليه مثلاً مسرحيات الكاتب المسرحى المعاصر الذى
حاز شهرة كبيرة فى أوروبا سمويل بيكيت (١٩٠٦ -) وهو يركّز
فى مسرحياته على أن حياة الإنسان لا معنى لها ولا تبدو معقولة . ومن هنا
عرف مسرحه بالمسرح الالامعقول . وهذا النوع من الكتاب يعكس لنا إلى
أى حد تعانى الحضارة الأوروبية من أزمة قيم شديدة قد تعجل
بانهيارها .

لقد نظرت بعض الفلسفات المعاصرة كوجودية سارتر الى الانسان على انه كائن حائر ، وانه وجود يحمل العدم في صميمه . بل ان وجود الانسان عند سارتر مرادف للقلق الى الخسد الذي يجعله يقول : «نحن قلق» (٦٥) . (Nous sommes angoisse)

والانسان كما يقول سارتر محكوم عليه في كل لحظة أن يخترع الانسان ، فما الانسان الا ما يصنع نفسه ، وما يريد لنفسه ، وما يتصور نفسه بعد الوجود . انه هو وحده خالق قيمه ومعاييره ، يقول سارتر «ويترتب على ذلك أن حريتي هي الاساس الوحيد للقيم ، وليس ثمة شيء مطلقا يمكنه أن يلزمني باصطناع هذه القيمة أو تلك» (٦٦) .

ان الحرية عند سارتر ليست سوى ارادتنا واهوائنا (٦٧) ، وحياتنا لا شيء غير العبث والضياع والانسان عاطفة لا فائدة منها . (٦٨)

وعلى هذا النحو تتصور بعض الفلسفات المعاصرة حقيقة الانسان غتسلبه كل معنى يمكن ان يكرم من أجله .

وسيعزل انسان العصر في هوة الضياع اذا لم يتجاوز القلق الى الايمان ، وستزداد مشكلاته حدة اذا ظل يمارس حرية كمالك التي يدعوا اليها سارتر ، وهي حرية من شأنها ان تؤدي به الى التردى في الهوة السحيقة التي يريد سارتر ان يؤول اليها كل وجود انساني ، وهي هوة العدم .

وحين يركز فلاسفة هذا العصر اهتمامهم على ما يسمونه «مأساة الانسان» فهم ينطلقون من الالحاد . والذي ينطلق من الالحاد «كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها» (سورة الانعام ، آية ١٢٠) . «ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور» (سورة النور ، آية ٤٠) .

ان كثيرا من فلسفات العصر اذ تنتهي الى العدمية (Nihilism) لا تمثل الا خواء فكريا كنيلا بالقضاء على كل ما هو عظيم من انجازات الانسان .

65 L'être et le néant, P. 81

66 Ibid, P. 78

67 Ibid P. 520

68 Ibid, P. 708

آداب الانسان فى علاقته بالكون

وإذا كان ثمة في عصرنا هذا فلسفات عدمية لا ترى لحياة الإنسان معنى ، فثمة توجد فيه أيضا فلسفات أخرى تصطبغ في ظاهرها بصبغة العلم ولا ترى في الوجود إلا المادة ، وتذهب إلى أن العالم المادي الذي ندركه بحواسنا هو الحقيقة الوحيدة ، وأن المادة ليست من نتاج العقل بل أن العقل ما هو إلا اسمى نتاج للمادة .

ومثل هذه الفلسفات الأخيرة إنما تولد في الإنسان غرورا لا حدة له بتفسيه وبالعلم وانجازاته . وما تراه الآن في عالمنا المعاصر من استخدام العلم والتكنولوجيا في إثارة الحروب والتدمير ، إنما هو مظهر من مظاهر غرور الإنسان المعاصر بالقوة المادية وحدها وابتعاده عن القيم الإنسانية التي يمكن أن تحد من شرور تلك الحروب وويلاتها .

ولا يمكن لإنسان العصر أن يستقر نفسيا ويأخذ وجهته الصحيحة نحو إنجاز رسالته على الأرض إلا إذا عرف حدوده مع خالق هذا الكون ومدبره ، ذلك أن الكون كله شأن من شئون الله تعالى : «ولله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور» (سورة آل عمران ، آية ١٠٩) . فهو تعالى خالق الكون بما فيه الإنسان ، وهو الذي ركب العقل في الإنسان ليعمر به الأرض لا ليدمرها ، وليعرف به خالقه لا ليلحد ويحاول أن تضع الإنسان في إطار الكون كله وقوانينه الحتمية — لا في إطار قدرته الخاصة المحدودة — لترى أن ليس للإنسان قدرة على توجيه مجرى الحوادث الكونية وفق مشيئته ، لأن هذا من شأن خالق الأشياء جميعا ومدبرها وهو الله . وتأمل بعد ذلك همق المعنى فيما ورد في القرآن الكريم على لسان إبراهيم ردا على أحد المنكرين لوجود الله عن طريق تعريفه بعجزه في نطاق ذلك الإطار الكوني الذي اشرنا إليه .

«الم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتياه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين» (سورة البقرة ، آية ٢٥٨) .

ومن الطبيعي اذا كان الانسان عاجزا بالنسبة لما يجري في الكون ان يكون عاجزا بالنسبة لخالق الكون ، يقول تعالى منبها افراد الانسان : «وما أنتم بمعجزين في الارض ولا في السماء» (سورة العنكبوت : آية ٢٢) .

ولعل معنى هذه الآية لم يتضح تماما الا بعد نجاح الانسان في الهبوط على سطح القمر ، وربما تساءل الانسان قبل ذلك عن معنى قوله تعالى : «ولا في السماء» اذا ما شأن الانسان بالسماء؟ وكيف يكون غير معجز لله فيها ، وهو كائن من شأنه ان يكون دائما على الارض؟

ومن اطرف ما وثقت عليه في تفسير هذه الآية عبارات للامام فخر الدين الرازي يوضح فيها ان الانسان ، لو استطاع ان يصل يوما ما الى السماء ، وهو جائز فانه لن يكون معجزا لله في هذه الحالة ايضا ، فلم يطرح من ذهنه امكانية وصول الانسان الى الفضاء الخارجي بما فيه من اجرام ، وقد كان ذلك في عصره ضربا من ضروب الخيال ، مع انه أصبح في عصرنا حقيقة واقعة . يقول الرازي ما نصه : «ما أنتم بمعجزين في الارض ولا في السماء» (يعنى بالهروب أو الثبات) أي لا تخرجون من قبضة قدرة الله ، فلا اعجاز لا بالهروب ولا بالثبات» .. وقدم (تعالى) الارض على السماء لان هربهم الممكن في الارض ، ثم ان فرضنا لهم قدرة غير ذلك ، فيكون لهم صعود في السماء» (١٩) .

ان تلك الآية ، وكثير غيرها في القرآن انما تنبه الانسان الى خلق التواضع ، فبهما تقدم العلم ، وبهما سيطر الانسان على بعض جوانب الطبيعة ، فلا ينبغي ان يفتر بما وصل اليه ، وانما عليه ان يتذكر دائما ان ثمة قوة أكبر من قوته وهي قوة الخالق . وان الكون أوسع من ان يحيط به عقله المحدود .

لقد سأل صحفي امريكي يدعى «فيريك» العالم المشهور اينشتاين قبيل وفاته (٧٠) عن موضوع الايمان بالله فرد عليه اينشتاين قائلا :

(١٩) انظر التفسير الكبير ، في تفسيره لآية ٢٢ من سورة العنكبوت :

(٧٠) اوردنا نص هذا الحوار وعلقنا عليه في مجموعة بحوث لنا نشرتها وزارة الاوقاف بالجمهورية العربية المتحدة بعنوان «محاضرات في علوم القرآن الكريم والعقيدة والاخلاق والتصوف والفلسفة» القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٣ - ٢٤ . وانظر أيضا كتاب الدكتور محمد عبد الرحمن عرجبا عن اينشتاين ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ١٤١ وما بعدها .

أما أنا فليست ملحدا ، ولا أدري ما إذا كان يصح في القول بأن
من أنصار مذهب وحدة الوجود ، فالمسألة أوسع نطاقا من عقولنا المحدودة
(لاحظ دلالة اعتراف أينشتاين هنا بأن العقل البشري محدود مع أن عقليته
تعد أكبر عقلية علمية في القرن العشرين) .

فعماد فيرك ليقول له : ان الرجل الذي يكشف أن الزمان والمكان
منحيان ، ويحبس الطاقة في معادلة واحدة جدير به ألا يهوله الوقوف في
وجه فير المحدود .

ويرد عليه أينشتاين قائلا : اسمح لي أن أجيب بأن أصرب مثلا .
ان العقل البشري مهما بلغ من عظم التدريب وسمو التفكير عاجز عن
الاحاطة بالكون . فنحن أشبه الأشياء بطفل دخل مكتبة كبيرة ارتفعت كتبها
حتى السقف فغطت جدرانها ، وهي مكتوبة بلغات كثيرة . فالطفل يعلم
أنه لابد أن يكون هناك شخص قد كتب تلك الكتب ، ولكنه لا يعرف من
كتبها ، ولا كيف كانت كتابته لها ، وهو لا يفهم اللغات التي قد كتبت
بها .

ثم إن الطفل يلاحظ أن هناك طريقة معينة في ترتيب الكتب ونظاما
خفيا لا يتذكره هو ، ولكنه يعلم بوجوده علما مبهما ، وهذا على ما أرى
هو موقف العقل الإنساني من الله مهما بلغ ذلك العقل من السمو والعظمة
والتقني العالي .

يواصل الصحفي الأمريكي ليساله مرة أخرى :

ليس في وسع الحد ، حتى أصحاب العقول العظيمة ، أن يحل لنا
هكذا اللغز؟

فكانت اجابة أينشتاين كما يلي :

نرى كوتا بدع الترتيب خاصا لتوأميس معينة . ونحن نفهم تلك
التوأميس فهما يشوبه الأبهام ، وان عقولنا المحدودة لا تدرك القوة الخفية
التي تهيمن على مجاميع النجوم؟

من هذا الحوار ذى المغزى العميق يتبين لك أن أينشتين فى موقفه من مشكلة الكون وخالفه لم يخرج من الادب الذى رسمه لنا القرآن الكريم فالقرآن قد حثنا على النظر فى الكون وقوانينه لكى نعرف الله بآثاره وصفاته ولكن مع التواضع التام بازاء الخالق تعالى ، لان عقولنا محدودة ولن نستطيع ان ندرك كنهها تعالى . قال تعالى : «لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار» (سورة الانعام ، آية ١٠٣) .

ولعلك تدرك ههنا ايضا عمق المعنى فيما حكى عن الجتيد احدى كبار ائمة التصوف فى الاسلام ، قال : «اشرف كلمة فى التوحيد قول أبى بكر (الصديق) : سبحان من لم يجعل للخلق طريقا الى معرفته الا المعجز عن معرفته» (٧١) .

ان الانسان اذا استطاع ان يجمع بين العلم بالكون والتصوف من حيث هو قيم اخلاقية رفيعة ونزعة روحية مثالية تهدف دائما الى النفاذ الى الحقيقة ، فانه يصل الى ذروة الكمال .

والتصوف الحقيقى علاج للفرد والمجتمع ، فهو يجنب الفرد شرورا كثيرة على راسها الغرور بنفسه ويعلمه وبإمكانياته ، وهو فى نفس الوقت يحدث فى المجتمعات التى تسودها فلسفات مادية نوحا من التوازن بين مطالب المادة ومطالب الروح .

لقد بدأت مجتمعاتنا ، فى زحمة الحياة المادية تفقد مقومات وجودها الروحى ، واصبحت فى عصر سيادة القوة المادية وحدها تتشكك فى القيم الانسانية الرفيعة ، هل لها وجود ام انها وهم من الاوهام! لقد اصبح الناس فى عصرنا — اللهم الا قلة واعيد — ينظرون الى كل شئ على ضوء المادة وقيسون كل شئ بمقياس الحس .

ويقيننا ان الناس لو انصرفوا قليلا عما شغلهم به الدنيا الى تدبر

(٧١) الطوسى : اللع ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٧٢ .

ما فى الاسلام من المثل الروحية ، ولو آمنوا بأن وراء المادة والحس عالما آخر له روعته وجلاله ، وله قيمة ومعاييره لغيروا من حكمهم على الاشياء ولوجدوا الراحة النفسية بعد العناء ، ولأقبلوا على حياتهم فى تفاؤل وابتسام ، ولاندفعوا الى العمل المثر فى همة وثبات .

ان التصوف منهج كامل فى الحياة ، والصوفى المحقق هو الذى لا يرى تعارضا بين حياته التعبدية وحياة المجتمع الذى يعيش فيه ، بل هو الذى يستعين بحياة التعبد على حياة المجتمع وما فيها من مشقة وكفاح ، والتصوف بهذا المعنى «فلسفة ايجابية» تشفى على حياة الانسان معنى ساميا .

لهذا لا ينبغى ان يظن بأن الصوفية قوم سلبيون يصرفون الناس عن الكون المادى وعلومه الى الاغراق فى العبادة والانعزالية عن المجتمع فهذا تصور غير صحيح بالنسبة لصوفية الاسلام ، فالتصوف الاسلامى يعبر عن قيم الاسلام ، والاسلام دين جامع بين العمل الدنيوى والعمل الاخرى ، ولا يصرف الناس عن الاخذ بأسباب الدنيا وبخيراتها «قل من حرم زينة الله التى اخرج لعبادة والطيبات من الرزق» (سورة الاعراف ، آية ٣٢) .

ان نظرة صوفية الاسلام الى الكون والانسان ذات مغزى اخلاقى بعيد ، فهم يريدون ان يبينوا للناس ان الكون مجزء شأن من شأن الله ، ومصيره حتما الى الفناء ، فلا ينبغى على الانسان العاقل ان يتعلق نفسيا بالكون الى حد عبادته ، يقول تعالى :

«كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام» (سورة الرحمن ، آية ٢٦ - ٢٧) .

وكذلك لا ينبغى على الانسان ان يفتخر بنفسه ويعلمه ، يقول تعالى :

«ولا تمش فى الارض مرجا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا» (سورة الاسراء ، آية ٣٧) .

«وما أوتيتم من العلم الا قليلا» (سورة الاسراء ، آية ٨٥) .

ولابد من تطهير القلب عن اخلاقيساته الذميمة ، وعن التعلق بكل الاغيار العدمية (جمع غير ، ويشير بها الصوفية الى كل ما سوى الله) او الاكوان ، لتشرق في هذا القلب المعرفة الحقيقية بالله ، والى ذلك المعنى يشير ابن عطاء الله السكندري بقوله : «كيف يشرق قلب صور الاكوان منطبعة في مرآته؟!»

«أم كيف يرحل الى الله وهو مكبل بشهواته؟ أم كيف يطمع ان يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟ أم كيف يرجو ان يفهم دقائق الاسرار وهو لم يتب من هفواته؟!» (٧٢) .

لا بد اذن من ان يتفكر الانسان فيما يشاهده في الاكوان من دلالة على وجود الله ، يقول ابن عطاء الله : «الفكرة سيرة القلب في ميسادين الاغيار» (٧٣) .

ويوضح لنا ابن عباد الرندي معنى هذه الحكمة قائلا :

«للفكرة التي الزمها العبد وحض عليها هي سيرة القلب في ميسادين الاغيار فقط ، وهي مخلوقات الله ومصنوعاته .

«واما الفكرة في ذات الله فلا سبيل اليها ، يعتبر المتفكرون في آياته ولا يتفكرون في ماهية ذاته» .

«روى عن ابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله (ص) ابصر قوما ، فقال : مالكم؟ فقالوا : نتفكر في الخالق : قال ، تفكروا في خلقه ، ولا تفكروا في الخالق فانكم لا تقدرون قدره» (٧٤) .

-
- (٧٢) شرح الرندي على الحكم ، ج ١ ، ص ٢٠ .
 - (٧٣) شرح الرندي على الحكم ، ج ٢ ، ص ٩٥ .
 - (٧٤) شرح الرندي على الحكم ، ج ٢ ، ص ٩٥ .

وإذا كان الماديون فى عصرنا هذا وفى كل عصر لا يعتدون إلا بالحس . ولا يؤمنون إلا بالعالم المادى ، فإن الصوفية على العكس من ذلك يدون أن العالم المادى ليس غاية فى ذاته وإنما وراءه علة صائغة حكيمة مدبرة . صحيح أن الله تعالى قد أباح للإنسان أن يشتغل بالبحث فى المكونات ، أو بالعلم المادى ، ولكنه أمره فى نفس الوقت بعدم الوقوف عند حد المكونات ، وإنما عليه أن يتجاوزها إلى ما وراءها من الأسرار ، وقد ضمن ابن عطاء الله هذا المعنى فى قوله «إباح لك أن تنظر ما فى المكونات ، وما أذن لك أن تتف مع ذوات المكونات» «قل انظروا ماذا فى السماوات» (سورة يونس ، آية ١٠١) . فتح باب الاهتمام ، ولم يقل انظروا السموات لئلا يدل على وجود الاجرام» (٧٥) .

ان «أشبه شئ بوجود الكائنات اذا نظرت اليها بعين البصيرة وجود الظلال ، والظل لا موجود باعتبار جميع مراتب الوجود ، ولا معدوم باعتبار جميع مراتب العدم . وإذا ثبتت ظلية الآثار «أى الكائنات» لم تنسخ احدية المؤثر (الله) ، إذ الشئ إنما يشفع بمثله ، ويضم إلى شكله» (٧٦) .

كل ما فى الكون اذن ناطق بوحدانية الله ، يقول ابن الفارض فى «التائية الكبرى» .

والسنة الاكوان ان كنت واعينا
شهود بتوحيدي بحال فصيحة

وكيف يكون للكائنات وجود حقيقى مع الله و «الكائنات لا يثبت لها رتبة الوجود المطلق ، لأن الوجود الحق هو الله وله لاحدية . إنما للعوالم الوجود من حيث ما اثبت لها ، فاعلم أن من الوجود له من غيره بالعدم وصفه فى نفسه» (٧٧) .

(٧٥) شرح الرندى على الحكم ، ج ١ ، ص ١٢٨ .
(٧٦) لطائف المتن ، القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ص ١١٤ - ١١٥ .
(٧٧) لطائف المتن ، ص ١١٤ .

يضمي بعض الصوفية من أصحاب وحدة الوجود (Pantheism) كـابن عربي الى حد وصف الكون بأنه محض خيال اذا نظرنا اليه في ذاته ، أما اذا نظرنا اليه من حيث هو مظهر لتجلي الحق باسمائه الالهية ، فإنه يصبح حقيقة ، والى هذا يشير بقوله :

انما الكون خيال
وهو حق في الحقيقة
والذي يفهم هذا
حاز اسرار الطريقة (٧٨)

ان هذه الآراء ليست بعيدة عن روح العلم الحديث كما قد يظن لاول وهلة ، فان صورة الكون بعد نظرية اينشتين لم تعد تختلف كثيرا عن صورته لدى الصوفية ، ما دامت الموجودات فيه ذرات ، والذرات تتحلل الى اشعاعات ، وما نحسه من ثبات الموجودات وصلابتها انما هو امر راجع الى ادراكنا فقط وليس الى حقائقها .

ولولا العلة التي شاعت ان تتألف خيوط احداث هذه الموجودات لمقبرز الى العالم في صورتها المدركة لنا ، لما كان لهذه الموجودات وجود . ولذلك يقول ابن عطاء الله : «لولا ظهوره (أى الله) في المكنونات ما وقع عليها وجود ابصار ، لو ظهرت صفاته اضمحلت مكنوناته» (٧٩) .

وما أعمق المعنى أيضا في قوله :

«الكون كله ظلمة ، وانما اناره ظهور الحق فيه ، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده ، فقد أهوزه وجود الانوار ، وحجبت عنه شعوس المعارف بسحب الآثار» (٨٠) .

(٧٨) ابن عربي : نصوص الحكم ، نشر وتحقيق وتعليق الدكتور
أبو العلا عفيفي ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١٥٩ .

- (٧٩) شرح الرندى على الحكم ، ج ١ ، ص ١٢٧ .
(٨٠) شرح الرندى على الحكم ، ج ١ ، ص ٢١ .

وقد كشف ابن عباد الرندى عن الاغوار البعيدة لمعانى هذه الحكمة .
وما تتضمنه من الاشارات الى اختلاف مناهج الفارقيين فى نظرتهم الى
الكون ومعرفتهم بخالقه ، اذ يقول :

«ثم اختلفت احوال الناس ههنا :

«فمنهم من لم يشاهد الا الاكوان ، وحجب بذلك عن رؤية المكون ،
هذا تائه فى الظلمات محجوب يسحب الآثار الكائنات (كلنى به يشير الى
الحسين من علماء عصرنا وفلاسفته) .

ومنهم من لم يحجب بالاكوان عن المكون ، ثم هم فى مشاهدتهم اياه
فرق :

«فمنهم من شاهد المكون قبل الاكوان ، وهؤلاء هم الذين يستدلون
بالمؤثر على الآثار (يشير هنا الى بعض الصوفية الذين يستدلون بالله على
الكائنات ، ومن غريب الاتفاق ان يكون هذا هو نفس اتجاه الفيلسوف
الفرنسى ديكارت فى سيره من اثبات وجود الله الى اثبات حقيقة العالم
الخارجى) .

ومنهم من شاهده (اي المكون) بعد الاكوان ، وهؤلاء هم الذين
يستدلون بالافاء على المؤثر (يشير هنا الى المتكلمين والفلاسفة ومن نحا
نحوهم فى اثبات وجود الله بواسطة الاستدلال العقلى اذ يصعدون من
الكائنات الى مكونها) .

«ومنهم من شاهده مع الاكوان . والمعية ههنا اما معية اتصال ،
وهى شهوده فى الاكوان ، واما معية انفصال وهى شهوده عند الاكوان .

«وهذه الظروف (المذكورة فى حكمة ابن عطاء الله) ليست بزمانية
ولا مكانية ، لان الزمان والمكان من جملة الاكوان» (٨١) .

(٨١) شرح الرندى على الحكم ، ج ١ ، ص ٢١ .

ان نظرة بعض الصوفية الى الكون على هذا النحو تلتقى مع العلم .
فهم يريدون القول بان الكون ، في ابعاده الشاسعة التي لا يحيط بها عقل
الانسان ، لا ينبغي ان يكون خاضعا لتصوراتنا نحن عن الزمان والمكان
لانهما - على حد تعبير الرندى - من جملة الاكوان ، والاكوان
لا توصف بالوجود الحقيقى . فالزمان والمكان اذن امران نسبيان لا وجود
لهما فى الحقيقة الا من حيث ما يدرك الانسان بهما ما حوله من العسالم
المحسوس وموجوداته .

خلاصة القول ان الصوفية يعتبرون الوقوف مع الموجودات - هذا
الكون مع الغيبة عن ادراك المكون معا لا يليق بالانسان ، لان كل ما فى
هذا الكون ناطق بوجوده تعالى ، وليس ثمة حجاب بين الانسان والله ،
لان الله متجل فى الموجودات على اختلافها و «كيف يحتجب الحق بشيء ،
والذى يحتجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر» (٨٢)

الحجاب اذن فينا نحن ، فى شهواتنا واهوائنا ، ولو تخلصنا منها
لبدت الحقيقية واضحة كشمس النهار . وبهذا ايضا تتحقق حريتنا الجديرة
بنا . وما أعمق المعنى فيما يقوله ابن عطاء الله :

«انت مع الاكوان مالم تشهد المكون ، فاذا شهادته كانت الاكوان
معك» (٨٢) .

هناك اذن «فرق ما بين كونك مع الاكوان ، وكون الاكوان معك .

«فان كونك مع الاكوان يقتضى تقييدك بها ، وحاجتك اليها ، فانت
بذلك عبد لها ، ثم هى خاضعة ومسلمة لك احوج ما تكون اليها ، وهذه حالة
خسيسة يقتضيها عدم شهودك للمكون .

«لوكون الاكوان معك يقتضى ملكك لها ، واستغناك عنها (هذا هو
المعنى الحقيقى للزهد فى الاسلام ، وهو ان تملك الشيء ولا تكون له عبدا
فى نفس الوقت) ، فانت حينئذ حر عنها ، وهى محتاجة اليك وخادمة
لك» (٨٤) .

-
- (٨٢) شرح الرندى على الحكم ، ج ١ ، ص ٥٠ .
(٨٣) شرح الرندى على الحكم ، ج ٢ ، ص ٨٧ .
(٨٤) شرح الرندى على الحكم ، ج ٢ ، ص ٨٨ .

وقد يقبّادِر الى الذهن أن الصوفية يهونون من شأن الإنسان ومكانته في الكون ، كما يزهّدونه في الكون نفسه . وليس ثمة شيء أبعد عن الحقيقة من هذا . .

وكيف يزهد الصوفية الإنسان في الكون ، والكون مظهر تجليات الله بصفاته المختلفة كالعلم والحكمة والقدرة والخلق والتدبير وما إليها؟

وكيف يهون الصوفية من شأن الإنسان وهم يعلمون أنه خليفة الله على هذه الأرض؟

لا بد أن يكون وراء كلامهم عن الكون والإنسان غايات بعيدة ، فهم يريدون للإنسان في علاقته بالكون أن يكون خاضعاً لقيم أخلاقية معينة ، فلا يتمالي ولا يطغى ، ولا يغتر بعلمه ولا يعجب بإمكانياته ، أنهم كذلك يريدون له أن يتحسّر من عبودية الركون إلى المسالم المحسوس وملذاته لينطلق إلى فضاء المعرفة بخالقه .

إنهم كأطباء النفوس ، يعلمون الكثير عن نواحي الضعف الخلقى في الإنسان ، فيريدون علاجها وتلافى أسبابها ، لما يترتب عليها من شرور مدمرة تلحق بالإنسان ذاته وبمجتمعه ، ألم يقل الله تعالى :

«وخلق الإنسان ضعيفاً» (سورة النساء ، آية ٢٨) .

«وكان الإنسان عجولاً» (سورة الاسراء ، آية ١١) .

«وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً» (سورة الكهف ، آية ٥٤) .

«كلا ان الإنسان ليطغى ان رآه استغنى» (سورة العلق ، آية ٦ - ٧)

وهذه الآيات إنما تصور الإنسان حين ينحرف في سيره عن الوجهة التي يريد بها الله له .

أما الإنسان من حيث ما يحقق إنسانيته بالعلم وقيم الأخلاق فلا حدود لارتقائه وتقدمه .

انه صورة مصغرة للكون كله جامعة لاسراره (٨٥) ، ليس هو الكائن الوحيد القادر على تصفح موجودات هذا العالم ومعرفة اسرارها بما أودعه الله فيه من الاستعداد لذلك؟

ان الكون المادى وان وسع الانسان من حيث جسمه المادى الا انه لا يسمعه من حيث حقيقته الروحانية ، يقول ابن عطاء الله :

«انما وسعك الكون من حيث جثمانيتك ، ولم يسمعك من حيث ثبوت روحانيتك» (٨٦) .

«جعلك فى العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته ، وانك جوهره تنطوى عليك اصداغ مكوناته» (٨٧)

وليعزرننا القارئ اذا كنا قد اطلنا الحديث بعض الشيء عن نظرة صوفية الاسلام الى الكون والانسان ، فلقد كان هدفنا ان نظهره على ما فى الفكر الاسلامى من نظرة عميقة واعية الى الكون والانسان تستند الى قيم خلقية رفيعة ، وتتطوى على نزعة مثالية تهدف الى النفاذ الى الحقيقة العليا ، وهى فى نفس الوقت من الزم ما يكون لمجتمعنا فى هذه المرحلة من تطورها لتحدد من غلواء المذاهب المادية ، وشطط المذاهب العنيفة التى افقتن بها البعض فى عصرنا .

ومن الخطأ فى رأينا ان نعزل العلم عن التصوف أو القيم الاخلاقية بدعوى الموضوعية ، فما الذى يمنع من ان يكون العالم بالكون وموجوداته

(٨٥) لذلك يسمى بعض القدماء الانسان بالعالم الاصغر . يقول التهانوى : «وفى أسرار الفاتحة قد يقسم العالم الى الكبير والصغير ، واختلف فى تفسيرهما ، فقال بعضهم : العالم الكبير هو ما فوق السماوات ، والصغير هو ما تحتها ، وقيل : الكبير ملكوت السماوات والأرض وما بينهما ، والعالم الصغير هو الانسان» ، كشاف اصطلاحات الفنون ، مادة : «العالم» .

(٨٦) شرح الرندى على الحكم ، ج ٢ ، ص ٨٦ .

(٨٧) شرح الرندى على الحكم ، ج ٢ ، ص ٨٧ .

مؤمننا بالله ، ومتخلقا بكل خلق رفيع؟ الا يكون هذا ضمنا لعدم انحراف العلم
نى مصرنا عن مساره الطبيعى ، وهو نفع الانسان ، الى استخدامه فى
رور لا يعلم الا الله وحده ماذا سيكون مداها فى المستقبل؟

ان الامتزاج الحقيقى بين الصوفى ورجل العلم هو — فى رأى
الفيلسوف المعاصر برتراند رسل (١) وليس فى رأينا وحدنا — قمة السمو ،
وهو شىء يمكن تحقيقه على عالم الفكر .

وتأمل فيما يقوله رسل أيضا : «اذا كانت لدينا الرؤية الصوفية
للعالم ، وما يتجلى فيه من المرائى ، على أنه يكتسى بتور سماوى ، فإنه يمكن
القول بوجود خير أسمى أعلى من ذلك الذى يتطلبه الفعل ، وان ذلك الخير
يفمر العالم كله . وهذا الحب الكلى لكل ما يوجد ، ذو أهمية قصوى من
حيث السلوك والسعادة فى الحياة ، ويعطى للعاطفة الصوفية قيمة لا يمكن
تقديرها؟ (٨٨) .



(٨٨) انظر بحث برتراند رسل (Mysticism and logic)
وقد نشرنا ملخصة مع دراسة تحليلية له فى بحث لنا نشر بمجلة
«الفكر المعاصر» القاهرة ، العدد ٣٤ ، ديسمبر ١٩٦٧ ، وجدير بالفكر ان
العدد كله عن رسل وفلسفته .

ثبت باهم المراجع

- ١ — القرآن الكريم .
- ٢ — ابن حزم : الفصل فى الملل والاهواء والنحل ، القاهرة ١٣١٧ هـ .
- ٣ — ابن رشد : فصل المقال فيها من الحكمة والشرعية من الاتصال القاهرة ١٣٢٨ هـ .
- ٤ — ابن رشد : الكشف عن مناهج الادلة فى بيان عقائد الملة ، القاهرة ١٣٢٨ هـ .
- ٥ — ابن عباد الرندى : شرح الحكم العطائية المعروف بغيث الواهب العلوية ، القاهرة ١٢٨٧ هـ .
- ٦ — ابن عزى : مفصوص الحكم ، نشر وتحقق وتعليق الاستاذ الدكتور أبو العلا مفيى ، القاهرة ١٩٤٦ م .
- ٧ — ابن عطاء الله السكندرى ، القشوير فى اسقاط التدبير ، القاهرة ١٣٤٥ هـ .
- ٨ — ابن عطاء الله السكندرى : الحكم ، مع شرح الرندى ، القاهرة ١٢٨٧ هـ .
- ٩ — ابن عطاء الله السكندرى : لطائف المثنى ، القاهرة ١٣٢٢ هـ .
- ١٠ — ابو الوفا التفتازانى : ابن عطاء الله السكندرى ، وتصوفه ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٩

- ١١ — ابو الوفا التفتازانى : علم الكلام وبعض مشكلاته ، القاهرة ١٩٦٦ .
- ١٢ — التهانوى : كشف اصطلاحات الفنون ، كلكتا ١٨٦٢ هـ .
- ١٣ — الجرجاني : التعريفات ، القاهرة ١٢٨٣ هـ .
- ١٤ — الحافظ المنذرى : مختصر صحيح مسلم ، بتحقيق محمد ناصر الدين الألبانى ، سلسلة احياء التراث الاسلامى التى تصدرها وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية بدولة الكويت الكويت ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٩ م .
- ١٥ — دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، ترجمة الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٤ م .
- ١٦ — الشهرستانى : الملل والنحل ، بهامش الفصل لابن حزم ، القاهرة ١٣١٧ هـ .
- ١٧ — الشيبانى : تيسير الوصول الى علم الاصول ، القاهرة ١٣٤٦ هـ .
- ١٨ — صاعد الاتدلسى : طبقات الامم ، نشر المكتبة الحيدرية بالنجف الاشرف ، ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م .
- ١٩ — الصنعانى (بدر الدين) : ترجيح اساليب القرآن على أساليب اليونان القاهرة ١٩٣١ م .
- ٢٠ — الطوسى : الملح ، القاهرة ١٩٦٠ م .
- ٢١ — الغزالى : احياء علوم الدين ، القاهرة ١٣٣٤ هـ .
- ٢٢ — الغزالى : المستصفى ، القاهرة ١٣٢٢ هـ .
- ٢٣ — فخر الدين الرازى : مغايب الغيب المشتهر بالتفسير الكبير ، القاهرة ١٣٢٤ هـ .
- ٢٤ — الكدى : الزينائل ، نشر وتحقيق وتعليق الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة ، القاهرة ١٩٥٠ هـ .

٢٥ — الله يتجلى فى عصر العلم ، مجموعة مقالات لبعض العلماء المعاصرين ، نشرها جون كلوفر مونسما ، نشر دار احياء الكتب العربية بالقاهرة .

٢٦ — شرح العقيدة الطحاوية فى العقيدة السلفية لمشراح مجهول (يرجح انه الانرعى الدمشقى المتوفى سنة ٧٤٦ هـ) المطبعة السلفية بمكة المكرمة ، ١٣٤٩ هـ .

بعض المراجع الاجنبية الوارد ذكرها فى البحث :

- (1) Descartes (R) : Discours de la méthode, ed joseph Gihert.
- (2) Descartes (R) : Les Principes de la Philosophie ed. joseph Gihert.
- (3) Lalande (A) : Vocabulaire technique et critique de la philosophie, Paris 1956.
- (4) Malbranche : Entretiens métaphysiques, ed. Fontana.
- (5) Russell (B) : mysticism and logic. London 1914. in Selected Papers, The modern Library, 137. New York, 1927.
- (6) Sartre (J.—P.) : L'être et le néant 1966 Edition gallimard, 1943, Offset—Aubin à Poitiers (Vienne), 1965.

Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com